محمود شلبي

حياة يحيى

دار الجيل
بيروت - لبنان

حيـــاة يحيى

محمود شلبي

حياة يحيى

دار الجيل
بيروت

الطبعة الثانية
١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

الإهـــداء

اللـــهم . . . منـــك . . . وإليـــك

محمـــود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله ... عدد ما خلق في السماء ...

الحمد لله ... عدد ما خلق في الأرض ...

الحمد لله ... عدد ما خلق بينهما ...

الحمد لله ... عدد ما هو خالق ...

وأصلي وأسلم ... على خاتم النبيين ... عدد ذلك ...

وبعـــد ...

هذا كتاب ... ان شاء الله ... فريد ... عن نبي فريد ..

عن موجة فريدة ...

أشير اليها في قوله سبحانه : « لم نَجعَل لهُ مِن قبلُ سَميّاً » ؟!.

أي موجة كهذه الموجة !..

بلبل له صوت فريد ... من بين بلابل الحضرة ...

البحر اليحياوي ... يموج بتلكم الأمواج ...

« وحَنَانَاً من لدُنّا ... وزكاةً ... وكان تقِياً » !..

حنانا ... لا يتناهى ...

زكاة ... لا تتناهى ...

تقوى ... لا تتناهى ...

كل أولئك ... كان في يحيى مجموعاً !.

وغير أولئك ... من الصفات العُلى ... كان فيه متلألئاً ...

ومن أولئك المتلألئات فيه ...

« سلامٌ عليه ...

« يومَ وُلِدَ ...

« ويومَ يموتُ ...

« ويوم يُبعَثُ حيّا » !..

محمـــود شلبي

١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م

كهيعص ؟!...

كافْ ...

هَا ...

يَا ...

عَيْن ...

صَادْ !..

تلكم الجميلة الجليلة .. فاتحة سورة « مريم » .. انها بحر موّاج بالأسرار .. زخّار بالأنوار .

فما سرها .. وما نورها ؟!.

وما هذا الجمال السرمدي .. في ثنايا ترتيلها !

كأنما هي صفوف من الملائكة المكرمين .. قد جاءوا من عليين .. يرتلونها أبدع ترنيم !

انهـــا موجات علوية قدسية .. تتشعشع إلى الفؤاد .. فتتفتح أمامه .. معاريج السماء .. فيسمع النداء :

هذه بعض آياتي في خلقي .. هلم فاسمعوا :

« ذكر رحمت ربّك عبده زكريا » .

هذا ذكر .. رحمت ربك .. تجلت وظهرت في عبده .. الذي اسمه زكريا !

ثم تتلألأ جميلة أخرى .

فما هي تلكم الجميلة ؟!.

إذ نادى ربه ... نداء ... خفيا ؟!...

ليس معنى « خفياً »

أي همساً .. أو بعيداً عن الناس .

كلا .. فالأنبياء .. فوق ذاك المستوى .

انهم عند مستوى .. يُسمع فيه صريف الأقلام .

وإنما « خفياً » بالنسبة اليهم .. صلى الله عليهم .

أي .. خفياً عن السائل نفسه .

فهل يستخفى الإنسان عن نفسه ؟!.

نعم .. هؤلاء كذلك !.

أي .. وهو في مقام الفناء..

حيث لا يرى سوانا .

هنالك .. دعانا !.

« قال ربّ .

« اني وهن العظم مني .

« واشتعل الرأس شيباً .

« ولم أكن بدعائك ربّ شقِيا » .

وهن العظم مني .. تفكك .. من الكبر .

واشتعل الرأس .. كله .. كأنه شعلة واحدة بيضاء .

ولم أكن .. طيلة حياتي .. وفي أي حال من أحوالي .

بدعائك .. بسؤالك وندائك .

ربّ شقيًا .. أشقى برد دعائي وعدم إجابته .

وإنما عودتني .. يا كريم .. أن تستجيب دعائي .. فأسعد مرتين .

مرة حين أناديك .

ومرة حين تستجيب الدعاء !.

وكانت ... امرأتي ... عاقرا ؟!...

« وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا » .

ما زلت أقول .. وسأظل أقول .. الى ما شاء الله لي أن أقول .

ان الجناية الكبرى .. التي يرتكبها كثير من الذين يكتبون عن الأنبياء .

انهم يكتبون عنهم .. على أنهم وقائع وحوادث .. وتواريخ وسيَر .. تُروى وأحاديث تُسرَد .

فيطفئون بذلك الشمس .. بما كتبت أيديهم .. فويل لهم مما يكتبون !.

وإنما الأنبياء .. أنوار مكنونة .. في بشر .. يجب أن تُفجَّر .. فتتشعشع بما لا يحصى من الإشعاعات .

وإن كانوا لا يريدون أن يفهموا .. فليتدبروا قوله في امامهم .. والممثل لهم جميعاً :

« وسراجاً منيراً » ؟!.

أي شمساً .. أنوارها لا نهاية لها .

فجُماع شخصية الأنبياء .. هو هذا .

فإذا مسستهم .. من هنا .. سطعت لقلبك مراتبٌ من الأنوار .. تتوالى وتتعالى .. الى ما لا يتناهى .

وإني لأرجو الله سبحانه .. أن يكون هذا سبيلي اليهم .. صلى الله عليهم !.

« **وإني خفت** » طيلة حياتي .. وما زلت أخاف .

« **الموالي** » الورثة .. أولئك الأفاكين .. سدنة هذا البيت .. الذين بدلوا وأفسدوا كل شيء .. وتحولوا الى الدنيا وجمع حطامها .

« **من ورائي** » بعد موتي .. بعد أن أتركهم ورائي في هذه الدنيا .

« **وكانت امرأتي عاقراً** » في الأزل .. خلقتها عقيما لا تلد .

فأنا أطلب المستحيل .. ولكن قدرتك تذيب المستحيل .

« **فهب لي من لدنك وليا** » غلاماً صالحاً .. من محض الجود والكرم والمنّة .

« **يرثني** » يرث هذه النبوة التي أحملها .. فيحملها من بعدي .

« **ويرث من آل يعقوب** » ويرث هـــذا التراث الثمين .. تراث الأنبياء جميعاً .. الذين بعثتهم من أسباط يعقوب .. يوسف .. موسى وهارون .. داوود وسليمان .. وغيرهم من الرسل والأنبياء .. هذا تراث مقدس عريض .. يحتاج الى رجل أمين .. إلى عملاق حقيقة .. ينهض به .. ويؤديه إلى الناس .. في أمانة وعزم !.

« **واجعله رب رضيا** » في أعلى درجـــات الرضى .. ليكون مؤهلاً لحمل رسالتك وكلماتك الى الناس !.

يا زكريا ... إنا ... نبشرك ؟!...

« **يا زكريا** » .. الله .. المنادي .. وزكريا المنادَى ؟! .

يا زكريا ؟! .

أي شرف وُضع على رأسك زكريا .. أن ناداك ربك « يا زكريا » ؟!

« **إنا** » نحن الله .. من محض الجود .. ومحض الكرم .. ومحض الفضل .. ومحض المنة .

« **نبشرك** » نلقي اليك بما يسرّك .. وتقر له عينك .

« **بغلام** » فريد .. ليس كمثله غلام .

« **اسمه** » وسيكون اسمه .. كما كان في علمنا .. ومسطورا في الكتاب عندنا .

« **يحيى** » نحن اخترنا له هذا الإسم .. الذي لم نجعله لأحد من قبله ! .

« **لم نجعل له من قبل سميا** » من تسمى بهذا الإسم .

هذا في الظاهر .. وهو إشارة الى معنى باطن بعيد .

لم نجعل له من قبل سمياً .. أي مثلاً في صفاته العُليا .. وسموه ورقيه .

هو موجة فريدة غير مسبوقة .. ولا مكررة .. وإنما إنّا أنشأناه إنشاءً .. فجعلناه تركيباً جديداً فريداً .. ليس نسخة مكررة من بني آدم .

وإنما هو شيء متميز .. بخصائص متميزة .. لم تظهر من قبل في غيره .. وهذا هو معنى .. لم نجعل له من قبل سمياً .

هو بلبل من بلابل الحضرة .. انفرد بصوت خاص .. ونغم فريد .. لم يغرده أحد قبله ! .

فنادته ... الملائكة !؟...

في « مريم » ...

« إنا نبشرك بغلام » .

وفي « آل عمران » ...

« فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مُصدّقاً بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » !.

ولا تعارض ..

انما المبشر رأساً هو الله .

وحاملات البشرى من الله .. الى زكريا .. هم الملائكة .

فما أكرمها بشرى ..

من رب كريم ..

يحملها ملائكة مكرمون ..

إلى نبي كريم ..

بولادة نبي كريم ..

في حال كريم .. « وهو قائم يصلي في المحراب » ..

طلب زكريا .. « وليا » ..

فأعطاه ما سأل وزيادة .

طلب وليّاً .. عبداً صالحاً ..

فأعطاه « **غلاما لم نجعل من قبله سميا** » !.

ثم زاده .. فماذا زاده ؟.

« **مُصدقا بكلمة من الله** » سيكون مبشراً بظهور المسيح عليه السلام .. المخلوق بكلمة من الله .. كن فيكون !.

ثم ماذا زاده ؟!.

« **وسيداً** » وعظيما في قومه .. مهيبـــاً في الناس .. رفيع الدرجات في الدنيا .. رفيع المقام في الآخرة .

ثم ماذا زاده ؟.

« **وحصُورا** » عازفاً عن الشهوات الدنيا .. يحصر نفسه عنها .. متوجها بكله وجزئه الى الله .

ثم ماذا زاده ؟.

« **ونبيا** » طلب زكريا « **وليا** » فأعطاه نبيّاً .. وشتان ثم شتان .. بين النبي .. والوليّ .

فالنبوة تطوي في مطاويها الولاية .

والنبي الواحد .. يخرج من موجته ألوف الأولياء .

وتلك احدى عجائب الأنبياء !.

ونبيّاً .. عظيما .. يكفي دلالة على عظمته « **لم نجعل له من قبل سميا** » !.

ثم ماذا زاده ؟!.

« **من الصالحين** » من قمة قمم الصالحين .. من أعلى أعالي الصالحين .

ممن استتمت فيهم خصائص الصلاح !.

ثم ماذا زاده ..

« وحنانا من لدُنّا » غلاماً آتيناه حنانا عظيما .. من لدنا رأسا .

يتميز عن الأنبياء .. بتلك الصفة .

أفردناه بنسبة زائدة من الحنان .

هو مجلى الإسم « الحنّان » ..

ثم ماذا زاده ؟.

« وزكاة ورقيا » .. عظيما .. وسموا شامخا .. أعلى من السماء .

غلاما راقيا .. أشد الرقي .. ساميا أشد السمو .. رفيعا أشد الرفعة .

« وكان تقيا » في حياته كلها .. كان يخاف الله أشد الخوف .

فهو مجلى الجلال !.

ثم ماذا زاده ؟.

« وبَرّاً بوالديه » شديد البر بأمه وأبيه .. بأمه اليصابات أو اليزابيث .. وأبيه زكريا .

ثم ماذا زاده ؟.

« ولم يكن جبّارا » عنيداً .. ديكتاتوراً .. وإنما هو يخفض جنـــاحه المؤمنين .. ويفيض شفقة ورحمة بالناس .

« عصيّاً » لم يعص الله قط .

وكيف يعصيه .. وقد صنعه على عينه .

واجتباه لنفسه ..

هنالك ... دعا زكريا ... ربه ؟!...

زكريا ...

ليس أمراً هيّناً .

وإنما هو نبي عظيم ..

ذكره الكتاب ثمان مرات .. تنويهاً بشأنه .. وتسجيلاً لفضله .

مرة يسجل له أنه أحسن من يقوم بالتربية الربانية .. لأهل الله وخاصته ..

« فتقبّلها ربّها بقبول حسن

« وانبتها نباتاً حسناً

« وكفّلها زكريا .. »

أي أنبتت مريم .. عليها السلام .. أحسن نبات .

فمن هو الذي كلفه الله .. بإنبات مريم .. أحسن نبات ؟!

الجواب « وكفّلها زكريا » !.

أي .. الذي قام بتربية مريم .. التي اصطفيناها على نساء العالمين .. هو زكريا .. أحسن من يؤدي ذلك الدور العظيم !.

فإن اختيار زكريا بالذات من دون أحبار بيت المقدس .. دلالة على أنه أحسنهم عند الله هو زكريا .. فهو المختار ليقوم بتربية أحسن النساء !.

ولم تكن قرعة الأقلام .. محض تصرف من الأحبار .. وإنما هو تدبير إلهي يحتم دفع تلك الرضيعة .. مريم .. إلى زكريا .

ولذلك اقترعوا بأقلامهم أكثر من مرة .. وكل مرة يخرج قلم زكريا !

إذاً زكريا هو المراد .. لأنه أحسنهم .. فهو الذي يقوم على تنشئة أحسن النساء !..

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك

« وما كنت لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيهم يكفلُ مريم

«وما كنت لديهم إذ يختصمون » !..

اختلف الأحبار .. مَن يكفل هذه المولودة العظيمة .

كلٌ يريدها ...

فاتفقوا على القرعة .. وألقوا أقلامهم في ماء النهر .

ففي كل مرة .. يخرج قلم زكريا !.

وهذا تدبير من الله .. ولكنهم لا يشعرون !.

إن المراد أن تنبت مريم أحسن نبات ..

فالمرشح لهذا هو أحسن الأحبار ..

وذلكم زكريا !..

هذه مرة .. ذكر الكتاب فيها زكريا !.

ومرة أخرى .. يذكر الكتاب زكريا .

« كُلما دخل عليها زكريا المحرابَ وجد عندها رزْقاً .

« قال : يا مريمُ أنّى لكِ هذا !

« قالت : هو من عند الله

« إن الله يرزقُ من يشاء بغير حساب » !

مشاهد الجمال تتوالى !.

كلما دخل عليها زكريا المحراب .

كل مرة يدخل على مريم المحراب .. يتفقد أمرها .

يفاجأ بعجائب الإكرام !.

وَجَدَ عندها رزقا ؟!

ابهام الرزق .. اشارة إلى أنه أعلى مما تدرك العقول .

واكرام الكريم .. لعباده المكرمين .. فوق إدراك العقول دائماً .

رِزْقـــاً ؟..

ظاهر أم باطن ؟.. دينوي أم أخروي ؟.. ماديّ أم روحيّ ؟

كلاّ ثم كلا .. لا سبيل الى علمه لنا .

إنه شيء يكرم به الكريم .. مَن أصطفاها على نساء العالمين ..

وزكريا لا ينقضي عجبه .. وهو ما هو ؟.

ولكن العذراء .. عليها السلام .. تترقى وتتلقى .. ثم تترقى وتتلقى !.

فلما شاهد زكريا ما شاهد .. من بحار الإكرام ناداها :

« **يا مريمُ أنّى لكِ هذا** » ؟

من أين ؟.. ومتى ؟.. وكيف ؟.

ولكن لا أين .. ولا متى .. ولا كيف .. ولكن :

« **هو مِن عند الله** » !.

حيث لا أين ... ولا متى .. ولا كيف .. يا أيها النبي زكريا !.

ثم تشمشمت مَن اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين :

« **إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب** » ؟.

وكانت مشاهد رآها زكريا ..

أطمعته طمعاً عظيماً ..

أن يطلب من الله مطلباً مستحيلاً ..

حيث لا استحالة بالنسبة الى الله ..

وإنما الاستحالة بالنسبة الى عقولنا الضعيفة :

« هنالك دعا زكريا ربه » ..

وكانت هذه هي المرة الثالثة التي ذكر فيها الكتاب زكريا ..

فماذا قال زكريا .. وماذا دعا ؟!.

« قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقيا .

« واني خفت الموالِيَ من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا .

« يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » .

وماذا قال كذلك .. هنالك ؟!.

« قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء » .

ثم ماذا قال .. كذلك .. في مقام « هنالك » ؟!.

« رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين » .

هذا ما نادى زكريا ربه ..

في مقام .. **« هنالك دعا زكريا ربه »** .

وهذه الكلمات التي تموجت .. من قلب زكريا .

تحولت إلى موجات .. عند الله .

وهذه الموجات هي التي تخلّق منها يحيى ..
هي التي تكونت منها صفات يحيى العُليا ..
« فاستجبنا له .
« ووهبنا له يحيى » ..
كما تخلّقت صفات مريم العليا .
من كلمات امرأة عمران ..
« إذ قالت امرأة عمران .
« رب اني نذرت لك ما في بطني مُحرَّرا .
« فتقبل مني انك أنت السميع العليم » .
والخَلْق أسرار ..
ونية الأبوين عند التقائهما .. تؤثر في صفات الجنين .
فسبحان ربك العظيم !..

أنى ... يكون لي ... غلام ؟!٠

التعبير القرآني ...

يستحيل الإتيان بمثله !.

أنى يكون لي غلام ؟!.

فيها إعجاز الإعجاز !.

متى قالها زكريا .. وكيف يقولها .. وهو النبي الذي يعلم من الله ما لا نعلم .

الله يبشره بغلام .. وهو يستقبل البشرى .. بمثل هذا الاستغراب .. فلماذا كان من زكريا هذا ؟.

ان زكريا .. نادى ربه نداءً خفياً ..

وألح في النداء .. وتضرع بشتى ألوان الضراعة .. وتحنّن بكل صنوف التحنن .

تارة .. « **فهب لي من لدنك وليا** » ..

وتارة .. « **رب هب لي من لدنك ذرية طيبة** » ..

وتارة .. **رب لا تذرني فردا** » ..

ورغم أنه قال في دعواته : **من لدنك .. من لدنك** » أي هب لي من قدرتك لا من النواميس المألوفة ..

إلا أن مفاجأة المعجزة .. أحدثت صدمة .. دكت العقل دكاً دكاً .. فجعل عقل زكريا يردد « **أنى يكون لي غلام** » ؟!

ثم جعل يضــع الحيثيات « وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا » ..

العقل يقول .. رجل في المائة والعشرين من عمره .. ولم يسبق له الإنجاب قط .. وامرأته فوق التسعين من عمرها .. وطيلة حياتها عاقراً .. مستحيل أن يحدث منهما انجاب .

هذا هو العقل .. وما يقول .. ولكن الله يقول : « يا زكريا .. انا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا » !.

هنالك تخلخل العقل .. ثم تبدد .. ثم تلاشى ..

فجعل زكريا .. يستفهم : كيف سيحدث هذا .. هل أعودُ الى الشباب .. هل تعود امرأتي الى الشباب .. هل سيحدث تغيير في تركيب أعضائهـــا .. كيف .. كيف ؟.

ان زكريا يعلم علم اليقين ان الله اذا قال .. تحتم أن يفعل ما يقول ..

إذاً هناك غلام سوف يكون حتما ..

ولكنه لا يفهم .. ماذا سوف يحدث .. ليكون هذا الغلام ∴

هل سيجرى تعديل في تركيبه .. وتركيب زوجه ..

هل سيأمره الله .. بالتزوج بامرأة أخرى شابة .. لتنجب الغلام ؟.

وهذا الذي حدث من زكريا .. فجعله يردد « أنى يكون لي غلام » .

ثم يسرد حيثيات دعواه .. « وكانت امرأتي عاقراً .. وقد بلغت من الكبر عتيا » .. أي أقصاه .. منتهى الكبر .

هو هو .. ما حدث من مريم .. حين فوجئت بالمعجزة « إنما أنا رسول ربكِ لأهب لكِ غلاما زكيا » ..

فجعلت يتلاشى عقلها .. ويتلاشى .. وهو يردد .. ويردد « أنى يكون لي غلام » ؟!.

تأمّل .. نفس الكلمات التي قالها زكريا .. واستقبل بها المفاجأة .

وكما جعـــل زكريا يسرد حيثيات دعواه .. جعلت مريم تسرد حيثيات دعواها « ولم يمسسني بشر .. ولم أكُ بغيا » !.

هو يحتج بأن امرأته كانت عاقراً .. وهو قد بلغ من الكبر عتيا .

وهي تحتج .. بأنها لم يمسسها بشر .. في الحلال .. ولم تك قط بغيـــا .. ليمسسها بشر في الحرام !.

استحالة أمام عقل زكريا ..

واستحالة أمام عقل مريم ..

انما هي المفاجأة .. أذهبت العقل ..

وجاء شيء فوق العقل ..

شيء اسمه « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » !.

لقد قال زكريا .. ولقـــد قالت مريم .. كل منهما قال « أنى يكون لي غلام » ..

ولقد سرد زكريا .. حيثياته .. وسردت مريم حيثياتها ..

فماذا قيل له .. وماذا قيل لها ؟!.

أما زكريا .. فقد قيل له : « كذلك الله يفعل ما يشاء » !.

و « كذلك قال ربك هو علي هيّنٌ وقد خلقتُك من قبل ولم تكُ شيئا » .

أما مريم .. فقد قيل لها :

« كذلك الله يخلق ما يشاء .

« اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » .

و « كذلك قال ربك هو عليّ هيّنٌ .

« ولنجعله آية للناس ورحمة مِنَّا »

« وكان أمرا مقضيا » ..

كأنه يُراد أن يُقال ..

يا أيها النبي زكريا .. أكان لك عجبا .. أن يكون منك وأنت العجوز الفاني .. وزوجك العجوز العاقر .. غلام ؟.

وما هــــذا يكون بالنسبة .. إلى خلقك من قبل .. يا زكريا .. ولم تك شيئاً ؟.

ماذا كنت يا زكريا .. قبل أن أخلقك خلقا من بعد خلق .. في رحم أمك ؟

ألا تذكر .. أنك لم تك شيئاً ؟.

فهل خلقك من لا شيء أعجب .. أم خلق يحيى من أبوين فانيين أعجب ؟

هنالك بحث زكريا عن عقله .. فوجده قد تبدد وتلاشى .

وتحول زكريا .. إلى قلب .. يسمع ويرى .

والمعجزات تُدرك بالقلوب .. ولا تدرك بالعقول ..

وكأنه يراد أن يقال .. يا أيتها الصدّيقة مريم .. يا أيتها التي اصطفيتها .. وطهرتها .. واصطفيتها على نساء العالمين ..

أكان لكِ عجباً أن أهب لك غلاماً .. دون أن يمسسك بشر .. دون أن يحدث التقاء الذكر بالأنثى ..

أتظنين أن الناموس الذي جعلته .. وهــــو أن يتكون الجنين من تلقيح الذكر للأنثى .. يقيدني ..

كلا .. ثم كلا .. « الله يخلق ما يشاء » ..

لا ناموس يقيدني ..

ولا يكون الإله إلهـاً حقاً .. إلا اذا كان يفعل ما يشاء .. و «يخلق ما يشاء» ..

ان الناس من ضعف عقولهم .. وإلف الناموس الذي به يتناسلون .. ظنوا أنه لن يكون تناسل .. إلا عن طريق تلقيح الذكر للأنثى .

فأردت أن يفهموا أني أخلق ما أشاء .. كيفما أشاء .. فجعلت هـذه التجربة .. تجربة عيسى بن مريم .. تجربة خلق جديدة .. غير ما ألفوا .. فقضيت أن يُخلق عيسى من أم بلا أب .. من غير تلقيح .. ليفهموا أن الله يفعل ما يشاء .. و «**يخلق ما يشاء**» ..

ولولا أن تتخلخل عقول النـاس .. لأريناها ما لا يحصى .. من أساليب قدرتنا .. على ابداع الخلق .. بما لا يخطر على قلب بشر .

ولكن عقول الناس أضعف من احتمال ذلك ..

فجعلناها تجربة واحدة وحيدة .. ولم نكررها رحمة بالناس ..

لقد أردناها آية لهم .. دالة على اطلاق قدرتنا ..

فتخلخلت لها عقولهم .. وقال كثير منهم «**ان الله هو المسيح ابن مريم**».

فبدلاً من اتخاذ خلق عيسى .. آية على قدرتنا ..

قلبوا الأمر .. وجعلوه هو الله ؟.

من أجل ذلك .. لن نكررها ..

ان تجربة واحدة .. خلخلت عقول ملايين البشر ..

فكيف لو أريناهم تجارب كثيرة ؟.

«**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون**» ..

كأن شيئاً من هذا يراد أن يقال لمريم .. وإنك لتجد الإشارة الى نحو هذا في قوله : «**ولنجعله آية للناس .. وكان أمرا مقضيا**» ..

ألا .. ما استبعد زكريا .. وما استبعدت مريم .. ما بُشرا به ..

وما كان لأحدهما أن يستبعد .. وهو النبيّ .. وهي التي اصطفاها على نساء العالمين ..

وإنما هي المفاجأة .. مفاجأة القدرة القادرة القاهرة الباهرة ..

جعلتهما يستفهمان : « أنى يكون لي غلام » ؟.

كيف سيكون هذا ؟.

ماذا سوف يحدث يا ربّ ..

ما كان زكريا يعلم الغيب .. فيعلم مقدماً .. انه سوف يُرد الى استطاعة الإنجاب .. وأن زوجه سوف تُرد الى استطاعة الحمل « **وأصلحنا له زوجه** » .

وما كانت مريم تعلم الغيب .. لتعلم مقدماً .. انه سينفخ فيها .. فتحمل بعيسى .. « **فنفخنا فيها من روحنا** » ..

هذه غيوب .. لا سبيل لأحدهما الى علمها ..

ويزيدها غموضاً .. أنها مغايرة ومخالفة تماماً .. للمعهود في الناس ..

فاستفهامهما طبيعي ..

أما تسليمهما بالقدرة الإلهية .. فلا شك فيه ..

وإنما هو الغيب .. المحجوب عنها .. دفعهما الى الاستفهام ..

وهكذا .. كانت البشرى بيحيى .. مفاجأة لأبويه ..

وكانت البشرى .. بعيسى .. مفاجأة لأمه ..

وتحولت البشرى فوراً .. الى حَمل .. فحملت اليصابات بيحيى ..

وتحولت الأخرى فوراً .. الى حَمل .. فحملت مريم بعيسى ..

معجزتان .. تحدثان .. في وقت واحد .. من الزمان ..

« **فبأيّ آلاء ربكما تُكذبان** » ؟.

اجعل ... لي ... آية ؟!...

كأنه يراد أن يقال :

هذا اللسان الذي تجادلنا به .. لنمتقلنّه .. ولنحبسنّه .. فلا يستطيع الكلام .. ليتفرغ باطنك لنا .. تمام التفرغ .. يا زكريا ؟.

« قال رب اجعل لي آية .

« قال آتيك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا .

« واذكر ربك كثيرا وسبّح بالعشي والابكار » .

« قال » زكريا عليه السلام « رب اجعل لي آية » علامة .. أعرف بهـــا وقوع المعجزة ..

« قال » الله سبحانه :

« آتيك » علامتك .

« الا تكلم الناس ثلاثة أيام » لا تستطيع الكلام إطلاقاً مع الناس ثلاث ليال بأيامهن متواليات .. سوف نحبس لسانك عن الكلام .

« واذكر ربك كثيرا » لتتفرغ تفرغاً تاماً .. لنا .. توجّه الينـــا بكل ما فيك ..

« وسبّح بالعشي والابكار » .

بالمساء والصباح .. واصل تسبيحنا ليلاً ونهاراً .

وفي سورة « مريم » ..

« قال رب اجعل لي آية .

« قال آتيك الا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويا » .

ها هنا « ثلاث ليالٍ » وفي آل عمران « ثلاثة أيام » .

أي ثلاث ليال متواليات بأيامهن .. أي طيلة الأيام الثلاثة بلياليهن .

« سويّا » وأنت سويّ الخلقة .. ما بك من مرض يحبس لسانك .. وإنما أنت كما أنت .. وإنما نحن حبسنا لسانك عن الكلام .. لنكفه عن الجدال .

ولتستغرق في التوجه الينا باطناً وظاهراً .

قلبك .. ولسانك .. في حال « واذكر ربك كثيرا .. وسبّح بالعشي والابكار » .

سوف تترقى وتترقى يا زكريا ..

وسوف نعلمك .. ان لسانك هذا .. أولى به أن ينشغل بذكرنا وتسبيحنا .

فإذا ما اجتزت هذه التجربة .. وانقضت الأيام الثلاثة .. أطلقنا لسانك .. فعاد كما كان .. يُكلم الناس كما تشاء !.

فإذا كلمك الناس .. خلال هذه الأيام الثلاثة .. فسوف لا يستطيع الكلام « إلا رمزاً » إلا ايماء .. أو بالإشارة .. أما اللسان فلا يستطيع الكلام !.

وفوراً .. وقعت المعجزة ..

وفوراً .. كانت الآية ..

وحبس لسان زكريا ..

فأدرك وهو بالمحراب .. أن يحيى سوف يكون !.

فخرج ... على قومه ... من المحراب ؟!...

كما قيل لزكريا :

« آيتك ألا تكلم الناس » . .

قيل لمريم :

« فاما ترين من البشر أحداً .

« فقولي اني نذرت للرحمن صوما .

« فلن اكلم اليوم إنسيًّا » !.

سبحانك اللهم . .

تشابه عجيب . . وتطابق غريب . . بين الأمرين !.

حتى في السلوك الذي يُواجه به زكريا النـــاس . . عند وقوع معجزة خلق يحيى . .

والسلوك الذي تواجه به مريم الناس . . عند وقوع خلق عيسى . .

ليس هذا محض صدفة . .

كلا وإنما تدبير محكم . . وحكمة عالية . . وأمر يُراد . .

أما زكريا . . فمهما قال للنـــاس . . أن الله سيهب له غلاماً . . فإنهم لن يصدقوه . . فليُحبس لسانه عن الكلام .

ولتقع المعجزة . . ولتحمل اليصابات بيحيى . . حتى اذا شاهدوا نبيهم وسيدهم ممنوعاً من الكلام . . أدركوا أن الأمر حقيقة .

وأما مريم . موضع التجربة .. التي لم تحدث قبلها .. ولا بعدها .

فيها جادلت قومها .. فإنهم لن يصدقوها .

إذاً .. فلتصمت مريم ..

وليتكلم المولود ..

« **قال اني عبدُ الله** » !.

هنالك أبلس المكذبون ..

وتلألأت براءة مريم مما يأفكون !.

تشابه غريب .. وتطابق عجيب .. بين أمرين .

أمر خلق يحيى .. وأمر خلق عيسى .

جدير بالتأمل الطويل .. والتفكر العميق .

ولقد تأدب زكريا بما أدبه ربه فأحسن تأديبه :

« **فخرج على قومه من المحراب .**

« **فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** » .

« **فخرج** » فوراً .. بعد أن حبسنا لسانه .

« **على قومه** » الذين كانوا في انتظار خروجه .. من الأحبار والرهبان الذين يأتمرون بأمره .. ومن العابدين الذين يؤمون بيت المقدس .

« **من المحراب** » من القبلة التي يتوجه فيها الى ربه .. من الهيكل .

« **فأوحى اليهم** » فأشار اليهم بما يفهمون منه .

« **أن سبحوا بكرة وعشيا** » ادعوا ذكر ربكم صباحاً ومساءً .. وما بين ذلك .. شكراً على انعامه وإكرامه .. وما كان من آياته ..

وهذه المشاهد الجميلة الجليلة التي سجلها القرآن العظيم .

لا بأس أن ننقل هنا شيئاً مما ورد عنها عند أهل الكتاب .. للاستئناس وزيادة اليقين .

جاء في إنجيل لوقا :

« كان في أيام هيرودس .. كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيًا وامرأته من بنات هارون واسمها اليصابات .

« وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم .

« ولم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقـــرا وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما » .

ونتأمل ها هنا « كانت اليصابات عاقراً » ..

فنجدها تدخل تحت اشعاع قوله تعالى : « وكانت امرأتي عاقرا » ..

ثم نتأمل « وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما » .

فنجدها تدخل تحت مظلة قوله تعالى : « وقد بلغت من الكبر عتيا » !.

ثم يقول إنجيل لوقا :

« فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل الى هيكل الرب ويُبخر .

« وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور .

« فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور .

« فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف .

« فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سُمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا .

« ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته .

« لأنه يكون عظيما أمام الرب وخمرا ومُسكرا لا يشرب .

« ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس .

« ويرُد كثيرين من بني اسرائيل الى الرب إلهم .

« ويتقدم أمامه بروح إيليّا وقوته ليرُد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة الى فكر الابرار لكي يُهيىء شعبا مستعدا » .

وها هنا نلمس أن قول الإنجيل « وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور » ..

يدخل تحت ظلال قوله تعالى : « فخرج على قومه من المحراب » ..

ونلاحظ أن ما جاء في الإنجيل : « فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور » ..

يدخل تحت ظلال قوله سبحانه : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب » ..

ونجد أن : « لا تخف يا زكريا طلبتك قد سُمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يُوحنا » .

يدخل تحت ظلال قوله عز وجل : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام أسمه يحيى لم نجعل له قبل سميا » ..

ونجد أن : « ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته » ..

تدخل كلها تحت ظلال قول القرآن العظيم المعجز : « إنا نبشرك » .. لأن البشرى تشمل الفرح والابتهاج والسرور للجميع ..

ثم نجد أن : « لأنه يكون عظيما أمام الرب » ..

يدخل تحت ظلال : « لم نجعل له من قبل سميا » ..

ثم نجد أن : « .. وخمراً ومُسكراً لا يشرب . ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القُدُس » .. إلى آخر أوصاف يحيى .

كل ذلك يدخل تحت ظلال قوله سبحانه : « يا يحيى ُخذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا . وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا » ..

يقول القرآن العظيم : « وآتيناه الحكم صبيا » .

ويقول الإنجيل : « من بطن أمه يمتلىء من الروح القُدُس » ..

ويقول القرآن : « وكان تقيا » ..

ويقول الإنجيل : « وخمراً ومُسكراً لا يشرب » ..

وتعبير القرآن معجز .. لأنه وصفه بأنه كان في حياته كلها .. في أحواله كلها .. تقياً .. على أعلى ما تكون التقوى .

فأين هذا الشمول .. من وصفه بفرع واحد من التقوى « وخمراً ومُسكراً لا يشرب » ..

ثم ماذا ؟. ثم نعود لننظر ماذا قال انجيل لوقا ؟.

« فقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها .

« فأجاب الملاك وقال له انا جبرائيل الواقف ُقدام الله وأُرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا .

« وها انت تكون صامتا ولا تقدر ان تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم ُتصدّق كلامي الذي سيتم في وقته .

« وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من ابطائه في الهيكل .

« فلما خرج لم يستطع ان يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل .

« فكان ُيومىءُ اليهم وبقي صامتا » ..

وها هنا نجد أن ما جاء بالإنجيل .. ينتظم تحت ظلال ما جاء بالقرآن ..

يقول القرآن : « **رب اجعل لي آية** » ..

وفي الإنجيل : « كيف أعلم هذا » ؟.

ويقول القرآن : « **آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة ايام إلا رمزا** » .

وفي الإنجيل : وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا » ..

وفي اليوم الذي يكون فيه هذا .. أي الحمل بيحيى .. حدده القرآن العظيم .. بثلاثة أيام ..

وهذا التحديد من بدائع روائع .. جوامع موانع الكلم .

فمن ذا الذي يعلم من البشر متى سيكون الحمل بيحيى ؟.

اللهم لا أحد .. إلا الله .. علام الغيوب .

فإذا نطق القرآن العظيم بتحديد المدة « **ثلاثة أيام .. وثلاث ليال** » » .. عُلِم هنالك أن ذلك ليس بقول البشر .. لأن البشر جميعـــاً في الجهل بذلك سواء .

وإنما هو .. قول الله .. الذي يعلم وحده سبحانه .. متى يقع الحمل بيحيى .

ولا زكريا نفسه .. كان يعلم هذا .. رغم انه صاحب التجربة .. فكيف بمن سواه ..

إذاً لا أحد يعلم ذلك إلا الله .

إذا ما جاء بالقرآن العظيم .. من تحديد .. انما هو دليل قاطع ساطع .. على أن ذلك كلام الله العزيز ..

وها هنا دقيقة .. أن الفترة التي يعتقل فيها لسان زكريا .. هي الفترة التي يقع فيها الحمل بيحيى !.

وهذه وحدها عجيبة أخرى ..

ثم ماذا ؟. ثم يقول القرآن : « **فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبّحوا** » ..

ونجد في الإنجيل : « فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ..

« فكان يومئ إليهم وبقي صامتاً » ..

وتأمّل « فأوحَى إليهم » ..

و « فكان يُومئُ إليهم » .. كأن هذه الأخيرة تفسيراً حرفياً للأولى ..

ثم يقول إنجيل لوقا :

« **ولما كملت ايام خدمته مضى الى بيته** .

« **وبعد تلك الأيام حبلت اليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة هكذا قد فعل بي الرب في الايام التي فيها نظر اليّ لينزع عاري بين الناس** » .

فماذا كان بعد أن مضى .. خمسة أشهر .. على حمل اليصابات .. بيحيى !.

وآتيناه ... الحكم ... صبيا ؟!...

« وفي الشهر السادس أُرسل جبرائيل الملاك من الله الى مدينة من الجليل اسمها ناصرة الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف .

« واسم العذراء مريم .

« فدخل اليها الملاك وقال سلامٌ لك أيتها المنعم عليها .

« الرب معك .

« مباركة أنتِ في النساء .

« فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى ان تكون هذه التحية .

« فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدتِ نعمة عند الله .

« وها أنتِ ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع .

« هذا يكون عظيما » .

وهذا المشهد بأكمله يدخل تحت ظلال قوله تعالى في القرآن العظيم :

« .. فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويًا .

« قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنتَ تقيا .

« قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » ! .

كما يدخل تحت ظلال قوله سبحانه :

« إذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم .

« وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » !.

وتأمّل هنا قوله سبحانه : « وجيها في الدنيا والآخرة » .

وقول الإنجيل : « هـــذا يكون عظيما » .. تكاد تكون تفسيراً لكلمة « وجيهاً » . .

أو تأمّل قول الله : « اسمه المسيح عيسى » . .

ثم انظر كيف ان قول الإنجيل : « وتسمينه يسوع » يدخل تحت ظلاله . .

ثم ماذا ؟!.

ثم تمضي الأحداث المباركة . .

« فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست اعرف رجلا » ؟

وهذه تدخل تحت ظلال قوله تعالى :

« قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا » ؟!.

ثم يقول الإنجيل :

« وهو ذا اليصابات نسيبتك هي أيضا حبلى بابن في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا .

« لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله .

« فقالت مريم هوذا أنا أمَة الرب .

« ليكن لي كقولك .

« فمضى من عندها الملاك » .

تلقت مريم البشرى بالتسليم والتصديق التام . .

كما أشير إلى ذلك في كتاب الله :

« ومريم ابنة عمران التي احصنت فرْجهـــا فنفخنا فيه من روحنا

وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

صدقت بكلمات ربها ؟!.

بشّرها جبريل : « ان الله يبشرك بكلمة منه » . .

فصدّقت . . واستسلمت . . وابتهجت . .

ثم ماذا ؟!.

« وأما اليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابناً .

« وسمع جيرانها وأقرباؤها ان الرب عظم رحمته لها ففرحوا معها .

« وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا .

« فأجابت أمه وقالت لا بل يُسمى يوحنا .

« فقالوا لها ليس احد في عشيرتك تَسمى بهذا الاسم .

« ثم أومأوا الى أبيه ماذا يريد ان يُسمّى ؟

« فطلب لوْحا وكتب قائلا اسمه يوحنا .

« فتعجب الجميع .

« وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله .

« فوقع خوف على كل جيرانهم .

« وتُحدث بهذه الأمور جميعها .

« فأودعها جميع السامعين في قلوبهم قائلين أترى ماذا يكون هذا الصبي .

« وكانت يد الرب معه .

« وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ » . .

ثم يقول الإنجيل :

« أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان في البراري الى يوم ظهوره » . .

ثم يقول :

« وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر ، إذ كان بيلاطس البنطي والياً ، وهيرودس رئيس رُبع على الجليل ، وفيلبس أخوه رئيس رُبع على إيطورية وكورة تراخونيتس ، وليسانيوس رئيس رُبع على الأبليّة .

« في أيام رئيس الكهنة حنّان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية .

« فجاء الى جميع الكورة المحيطة بالأردن يَكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » .

طال ما ننقله عن الإنجيل .. في هذه المرحلة .. من حياة يحيى .. عليه السلام .

لنضع أمام القارىء .. آفاقاً فسيحة .. في معنى قوله تعالى :

« وآتيناه الحكم صبيا » ؟!.

أي .. وآتينا يحيى .. الفهم صبيا ..

فانظر إعجاز القرآن .. وكيف يكون ..

هذا وجه .. ووجه آخر في الآية .. يتلاقى معه ..

« يا يحيى » الموهوب من لدنا .. المؤيد من عندنا .

« خذ الكتاب » أي التوراة .. واشرع في ضبطها وحفظها .

« بقوة » أي بنية خالصة .. وعزيمة صحيحة صادقة .

« و » انما أمرناه بحفظها وضبطها إذ قد ..

« آتيناه الحكم » يعني الحكمة المندرجة فيها .. وأعطيناه فهمها واستنباط الأحكام منها حال كونه ..

« صبيا » لم يبلغ الحلم ..

كذا قال بعض المفسرين .

ووجه الجمع بين الوجهين .. ان الله آتاه فهم التوراة وأحكامها صغيراً .. حتى إذا بلغ آتاه النبوة .. فتم فضل الله عليه ونعمته .

« يا يحيى .

« خذ الكتاب بقوة .

« وآتيناه الحكم صبيا » ..

إسمه ... يحيى ؟!...

الزابيث ...

تحيا .. بيحيى .. وعلامة حياتها .. « يحيى » ..

وزكريا . يحيى .. بيحيى .. وعلامة حياته .. « يحيى » ..

« **قال ربِّ اجعل لي آية** » ..

اجعل لي معجزة .

« **قال آتيك** » معجزتك يا زكريا .

« **ألا يُكلم الناس ثلاث ليالٍ سويًا** » ..

لماذا هذا ؟!.

لرفع مستوى زكريا .. رفعاً عظيماً .

ان هناك تجربة عظيمة .. سوف تستخرج منه .

فتحتم رفعه إلى مستواها .

وما هي هذه التجربة ؟!.

هي كينونة طفل .. من شيخ تجاوز المائة « **وهن العظم مني .. واشتعل الرأس شيبا** » .. من شيخ لا يكاد يتماسك .. تفككت عظامه .

ومن امرأة عجوز .. قاربت المائة .. وكانت طيلة حياتها عاقراً .

هذان الشيخان الفانيان .. منهما سيكون طفل .

ويبدأ الاعداد للكينونة ..

زكريا .. يُمنع من الكلام .. ويُؤمَر بالتسبيح .. « واذكر ربك كثيراً » .

طاقات زكريا الظاهرة .. تُعطل كلها فوراً .

وطاقاته الباطنة .. تُوجَّه كلها الينا فوراً .

الى متى ؟!.

« ثلاث ليالٍ » .. لماذا ؟!.

لترتفع موجات زكريا الروحية .. إلى أعلى مرتبة .. يُمكن أن يرتفع اليها

لماذا ؟!. لأنه من هـذه الموجات .. سوف يرث الطفل القادم .. جميع الصفات .

فإذا كانت موجات زكريا .. في هذه الأيام الثلاثة .. أعلى .. كانت صفات الطفل أعلى .

وأما الزوجة .. فهي الأخرى .. تتوجه أكثر وأكثر .. إلى ربهـا .. « أن سبّحوا بُكرة وعشيا » .

هناك وعدٌ حتمي الوقوع .. من الله .

وهناك آية وقعت بزكريا .. وهي حبس لسانه .. تؤكد ذلك الوعد .

وهناك شيخ غادر المائة .. يموج إلى ربه موجاً .

وهناك زوجة قاربت على المائة .. تموج هي الأخرى موجاً عظيما .

وعادت الحياة الى زكريا .. وكان اهتزازها غضّاً طرياً .

وعاد الشبـاب إلى العصابات .. أو الزبابيث .. وتغيّر التركيب .. من الشيخوخة إلى الشباب .. ومن العُقم الى الإنجاب .. « وأصلحنا له زوجه » .

أعدناها إلى الشباب .. فصارت صالحة للإنجاب .

ما هذا .. أحياة بعد موت ؟!.

أشباب .. بعد شيخوخة ؟!.

نعم .. نعم ..

وكان لسان حال اليصابات .. « أألِد وانا عجوزٌ » ؟!.

وكان لسان حال القدرة .. « أتعجبين من أمر الله » ؟.

وكان لسان البشرى .. « كذلك قال ربك هو عليَّ هيّن وقد خلقتُك من قبل ولم تكُ شيئا » ..

ارتفعت أمواج زكريا الروحية .. خلال هذه الأيام الثلاثة .. الى أعلى مستواها ..

وارتفعت أمواج اليصابات معه .. الى مولاها .

هنالك .. التقى الزوج بزوجته .

هنالك .. وقع الحمل .. بيحيى .

فجاء الطفل على صفات أبيه .. آنذاك .

وصفات أمه .. وقتذاك .

فكان حياة جديدة .. للعجوزين .

ونعمة مديدة .. للفانيين .

فكل الناس تحيا مرة واحدة .. ثم تموت .

تحيا في الشباب .. وتموت في الشيخوخة .

ولكن زكريا وزوجه .. أحياهما الله مرتين .. في الدنيا .

مرة .. حياتهما الطبيعية .

ومرة .. حين أحياهما بيحيى .

كم كانت النعمة عليها .

وإن أعظم النعم .. أن يتحقق لك المستحيل .

وكم كان العطاء .. وإن أعظم العطايا .. ما ظننته لن يكون .

« يا زكريا .

« إنا نبشرك بغلام .

« اسمه يحيى .

« لم نجعل له من قبل سميا » !.

اسمه يحيى ؟!

سوف تذوقان الحياة .. بيحيى .

سوف تمتد حياتكما .. بيحيى .

فإذا جاء .. يحيى .. فسوف يحيا .. ليُحيي الموتى .

نبياً .. يدعو الناس لما يُحييهم .. **والرسول إذا دعاكم لما يُحييكم » !.**

فكان يحيى .. حياة لوالديه .. **« وبَرّاً بوالديه »**

وأعظم البر بالوالدين .. أن تشعرهما بالحياة .

وكان يحيى حياة للناس .. وأعظم ما تعطي الناس .. أن تعطيهم الحنان **« وحنانا من لدُنا »** .

والحنان هو الزاوية المفقودة من حيـــاة الناس .. فإذا وجدوها .. فقد وجدوا أعلى ما في الحياة .

وكان يحيى .. قادراً على منح هذا الحنان للناس .

لأن الله منحه هذا الحنان من لدنه .. وأمره أن يفيضه على الناس .

فهو مجلى الحنان .

يتلقى من الله .

ويُلقي إلى الناس .

وكيف لا .. وقد اختصه بذاك ؟.

« وحناناً من لدنّا » ؟!

وإشارة أخرى .. أعلى وأسمى ..

ان من كان اسمه « يحيى » ..

فالفعل « يحيا » .. بصيغة المضارع يُفيد الاستمرار ..

أي استمراره حيّاً ..

فكيف يكون ذلك ؟!.

بأن يكون شهيداً ..

لأن الشهداء أحياء ..

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً .

« بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

إذاً فليستشهد .. يحيى .. ليحيا .. أبداً !.

وهذا ما كان .. فقد قُتل يحيى ..

ليحيا .. يحيى !.

لم نجعل ... له من قبل ... سمياً ؟!...

يا أيها الخلق ...

تعالوا .. واسمعوا ..

هناك سرّ خطير .. خطير .. خطير ..

فقوموا جميعاً .. لتسمعوا !..

ان كلمة « حنانا » لم ترد في كتاب الله العظيم .. إلا مرة واحدة .. وحيدة ..

في قوله عز من قائل :

« وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا » ؟!.

حنانا ؟!.

لم تتكرر في كتاب الله !.

هذا هو السر الخطير ؟!.

وكأنكم تقولون : وأي سر هناك في هذا ؟!.

فأهتف بكم جميعاً : ألا فاعلموا أن السر في هذا ..

ان يحيى .. انفرد.. وحده بظهور الحنان.. من دون الأنبياء جميعا ؟!.

وكأنكم تقولون : هذا غير صحيح .. فما من نبي إلا وآتاه الله حناناً !.

وأقول : لا تعجلوا .. فإليكموا القضية .. غضّة طريّة ..

الأنبياء .. مرايا .. تنعكس عليها صفات ربهم ..

أي .. مجالى .. تتجلى عليها .. أسماء الله الحسنى ..

ولكن هذا التجلي .. يقع عليهم بنِسب تتفاوت ..

وهذا هو مصدر التفاضل بينهم :

« **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض** » .

مع اتحادهم جميعاً .. في الأصل العام .. وهو كونهم مجالى .. للتجلي الإلهي .

فالنبي الخاتم .. والرسول الأعظم .. صلى الله عليه وسلم ..

أوتى من ربه .. أعظم نسبة من التجلي الإلهي عليه ..

فهو المرآة العظمى .. لتجلي الأسماء الحسنى كلها ..

ومن هنا كان أفضل النبيين .. وإمام المرسلين ..

« **وكان فضل الله عليك عظيما** » !.

وباختلاف نسبة تجلي الأسماء الحسنى عليهم .. صلى الله عليه وسلم ..

يشتهر بعضهم بصفة ما .. مع اشتراكهم في الأصل العام ..

فموسى .. مثلاً .. كليم الله .. أي .. كانت نسبة تجلي صفة الكلام عليه .. أكثر ..

« **وكلّم الله موسى تكليما** » !.

ومن قبله .. ابراهيم .. مثلاً .. خليل الله .. أي الذي أوتى نسبة أكثر من الحب .. تؤهله لأن يتخذه الله خليلاً .. « **واتخذ الله ابراهيم خليلا** » !.

وعيسى .. مثلاً .. روح الله .. أي الذي أوتى نسبة أكثر من تجلي الروح عليه .. « **وروح منه** » ..

حتى إذا جئنا الى النبي الخاتم .. صلى عليه الله وسلم ..

كان عليه السلام .. أوتى نسبة أكبر .. من سائر الأنبياء .. من تجلي جميع الصفات الإلهية .

فكان أرفع الأنبياء درجات .. وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ..

فالأنبياء جميعاً .. يشتركون في كونهم جميعاً .. مجالى الأسماء الحسنى ..

ثم يتفاوتون بعد ذلك .. في نسب التجلي .. من كل اسم من الأسمــــاء الحسنى .. عليهم ..

فإذا تقررت تلك القضية .. انتقلنا الى .. يحيى .. عليه السلام .

فوجدنا أمراً عجباً !.

وجدنا أن الله يقول فيه : « **وحنانا من لدنا** » ففهمنا بالإشارة من ذلك .. أن الله تعــــالى اختص يحيى .. عليه السلام .. بنسبة أكبر من تجلي الإسم « الحنّان » ..

فكان يحيى .. عليه السلام .. مظهراً أكبر .. لظهور صــــفة الحنان الالهي .. عليه ..

فيمكن أن يقال أن الصفة الغالبة على صفات يحيى .. وكل صفاته عليا .. هي صفة الحنان ..

مع اشتراك جميع الأنبياء في تلك الصفة ..

إلا أن يحيى .. أوتى منها بنسبة أكبر .. فكانت فيه أظهر !.

ومن هنا انفرد يحيى في الكتاب الكريم كله بقوله تعــــالى : « **وحنانا من لدنا** » !.

وإبهام الحنان .. اشارة الى انه حنان وراء العقول ..

ليس بالمكتسب .. ولكن « **من لدنا** » .. رأساً ..

نحن الله .. نتجلى باسمنا « الحنّان » على عبدنا يحيى .. ليكون آية منفردة بظهور تلك الصفة من صفاتنا ..

ومتى تجلى الله .. باسمه الحنّان .. على عبده يحيى ..

امتلأ يحيى بالحنان ..

فأفاض من حنـــانه .. على كل من آمن به .. وكل من رآه .. وكل من سمع اليه ..

حناننا .. يموج اليه موجاً ..

وحنانه .. يموج اليكم موجاً ..

فلما انفرد يحيى بـ « **حناناً من لدنا** » .. أي كان الحنان هو الصفة الغالبة على صفاته كلها ..

انفتح لنا سر جديد آخر .. من شخصية يحيى .. عليه السلام ..

هو : لماذا قال فيه « لم نجعل له من قبل سميا » ؟!.

أي لم نجعل ليحيى من قبل .. من يشترك معه .. في أن تكون صفة الحنان هي الصفة الغالبة على صفاته ..

وإنما انفرد هو .. بظهور صـــفة الحنان فيه .. إذ قد آتيناه « **حناناً من لدنا** » .. فانفرد بها ..

إذاً لا مِثل له من قبله .. في ظهور صفة الحنان فيه .. إذاً لا سَميّ له من قبل .. أي لا أحد يماثله في غلبة صفة الحنان ..

فإذا كانت البشرى إلى زكريا : « **يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا** » ..

كان المعنى .. بغلام ليس كمثله غلام .. في صفاته .. ليس له « **سميا** » في تلك الصفة .. صفة الحنان ..

سوف نختصه بتجلي صفة الحنان عليه .. حتى تكون هي الصفة الحاكمة على كل صفاته ..

فهو يتكلم .. حناناً من لدُنا ..

ويعمل .. حناناً من لدُنا ..

ويدعو الناس الينا .. حناناً من لدُنا ..

ويتحرك .. حناناً من لدُنا ..

ويبشر الناس .. حناناً من لدُنا .. وهكذا ..

كما كانت الصفة الغالبة .. على رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. صفة الرحمة « **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** » ..

فكانت كلماته .. وأفعاله .. وتوجيهاته .. كلها .. رحمة للعالمين .. صلى الله عليه وسلم .. « **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** » ..

وكذلك .. استبان السبيل .. سبيل سر ورود كلمة « حنانا » مرة واحدة وحيدة بكتاب الله المجيد ..

اشارة الى انفراد من قيلت في شأنه .. وهو يحيى .. عليه السلام .. بظهورها فيه .. وكونها هي الصفة الغالبة على صفاته ..

فلما انفرد بها .. كان هو الوحيد الذي نُسب اليها ..

فلما انفرد بتجلي صفة الحنان .. بنسبة أكبر من غيره .. لم يكن له من قبل سميًّا ..

« **لم نجعل له من قبل سميا** » ؟!.

أي .. لم نجعل له من قبل شبيهاً .. يماثله في ظهور صفة الحنان !..

المسيح ... يصف ... يحيى !؟...

ثلاثة أوصاف ...

تتطابق تمام التطابق .. في وصف يحيى .. عليه السلام ..

أحدها .. من الله .. تعالى ..

والثاني .. من المسيح .. عليه السلام ..

والثالث .. من أحد الصحابة .. رضي الله عنه ..

أما الذي من الله .. فقوله سبحانه :

« ... إسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » .

وأما الذي من المسيح .. عيسى بن مريم فقوله عن يحيى :

« أنبيًا ؟

« نعم أقول لكم وأفضل من نبي » .

« الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » .

وأما الذي هو من الصحابة .. فهو ما قاله ترجمان القرآن .. ابن عباس .. في تفسير قوله تعالى « **سميا** » ..

جاء في صحيح البخاري .. وما أدراك ما البخاري :

« قال ابن عباس : مثلا » .

أي قال ابن عبـــاس في تفسير قوله سبحانه « لم نجعل له من قبل سميا » أي مِثلا ..

أي : لم نجعل ليحيى من قبل مِثلاً !.

فما معنى هذا التطابق العجيب ؟!.

معناه خطير .. خطير .

يكشف أمراً على الغاية من الخطورة .

أمراً حار فيه الأقدمون والمحدثون .

حتى قال الإمام العيني .. في شرحـــه الكبير « عمدة القاري .. شرح صحيح البخاري » .

قال : « **فان قلت : ما وجه المدحة باسم لم يسم أحد قبله ونرى كثيرا من الأسماء لم يسبق اليها ؟!**

« **قلت : لأن الله تعالى تولى تسميته ، ولم يكل ذلك الى أبويه ، فسماه باسم لم يسبق اليه** » .

وهذا الجواب من الإمام العظيم .. يدل على الحيرة في فهم الإشارة المكنونة **في قوله « لم نجعل له من قبل سميا »** !.

ويكفي في الرد على الإمام الكبير .. أن يقول القائل : ان الله تولى تسمية المسيح .. « **بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم** » .. ومع هذا .. لم يقل **في وصفه « لم نجعل له من قبل سميا »** ؟!.

إذاً هناك سر عميق في اختصاص يحيى .. بهذا القول !.

وهذا السر .. يكشفه لنا .. هذا التطابق العجيب بين الأوصاف الثلاثة .

الله يقول : « **لم نجعل له من قبل سميا** » .

والمسيح يقول : « وأفضل من نبي لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا » !.

وابن عباس يقول : « مِثلا » !.

فما ذكره كتاب الله من قوله « سميا » .

فسرّه المسيح .. عليه السلام .. بقوله « أفضل من نبي » .. وقوله « لم يقم اعظم من يوحنا » ..

وفسره ترجمان القرآن بقوله : « مِثلا » !.

فتطابقت الثلاثة .. فكشف لنا تطابقها أن المراد بقوله « سميا » هو « مِثلا » ..

وهو عين ما أشـــار اليه المسيح .. عليه السلام .. « لم يقم .. أعظم من يوحنا » ! .

وكان هذا جواباً للذين حاروا قديماً وحديثاً وسألوا : ما وجـــه المدح في تسمية يحيى باسم لم يُسبق اليه .. وكأيّن من طفل سماه أهله باسم لم يُسبق اليه؟

وكان الجواب .. من عالم الإشارة .. لا من عالم العبارة .

وجه المدح .. أن يحيى جعلناه موجـة منفردة .. بصفة يتفرد بهـا عن سائر الأنبياء .

فكان فريداً في تلك الصفة .. انفرد بها .. وظهرت به للخَلق .

انظر الى الإشارة الى ذلك :

« يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » ..

وكأن سائلا يسأل : كيف يا رب لم تجعل له من قبل سميّاً ؟!.

فيأتي الجواب فيما بعد .. « وحنانا من لدنا » .

وهذا من عجيب بدائع هذا الكتاب !.

فيفهم من يَمُنُّ الله عليه بالفهم .. أن يحيى لا مِثل له بين الأنبياء .. لأن الله آتاه « حنانا من لدنا » .. فانفرد بها عن سائر الأنبياء .. فهو لا مثل له .. « لم نجعل له من قبل سميا » .

فهو كما وصفه المسيح .. عليه السلام ..

« أفضل من نبي ..

« لم يقم .. أعظم من يوحنا » !.

قتل ... زكريا ؟!...

أعظم المصائب ...

أن تكون السلطة في أيدي الأوباش ..

وأعني بالأوباش أولئك الأراذل .. الذين يرتفعون إلى كراسي الحكم .. وأولى بهم أن يكونوا في صناديق القمامة !.

وهؤلاء حين يتسلطون ويتسلطون .. فويل للناس مما سوف يكون !.

وسوف نرى في هذا الفصل .. كيف قُتل نبي عظيم .. لمجرد وهم قام برأس أفاك أثيم !.

فكيف كان ذلك ؟!.

كان هناك مُعتَل اسمه هيرودس .. توهم الخطر على مُلكه .. من مولد طفل سيكون مَلِكاً .. فرأى بعبقريته الإجرامية أن خير وسيلة للحفاظ على ملكه .. أن يأمر بقتل كل طفل حتى سن السَّنَتين .. وبذلك يقطع السبيل على أي طفل سوف يكون مَلِكاً .. فلا ينازعه أحد في مُلكه !.

وكان أمر الطفل « يحيى » قد شاع وذاع في الناس .. فأمر بقتله ضمن الأطفال الآمر بقتلهم .

ففرت به أمه اليصابات إلى الصحارى والجبال .

وجاء زبانية المعتَل يسألون زكريا : أين ابنه ؟!

فأخبرهم أنه لا يدري أين ذهب .

فكان جزاء زكريا .. أن يُقتل بين الهيكل والمذبح !.

هكذا فعل هيرودس ..

وهكذا يفعل الأوباش .. حين يرتفعون إلى السلطة ..

ومن هنا قلنا ان أعظم المصائب أن تكون السلطة في أيدي الأوباش ..

وسوف نرى فيما بعد .. كيف يُقتل يحيى .. النبي العظيم .. بنـــاء على رغبة راقصة !.

فأي مصيبة تصيب الناس .. هي أعظم من قتل الأنبياء ؟!.

ولكن هو حصاد حكم المجرمين .. حين يحكمون !.

وإليك تفاصيل القصة الدامية الرهيبة .. قصـــة مصرع زكريا .. عليه السلام ..

« ولما ولد يسوع في بيت لحم .. في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود .

« فاننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له .

« فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه .

« فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح .

« فقالوا له في بيت لحم ..

« لأنه هكذا مكتوب بالنبي » .

ان هيرودس يضطرب .. لا لأنه يرغب في المسارعة إلى الإيمان بالمسيح .. ولكن يضطرب من أجل مُلكه .. هذا ما يشغل بال المذكور !.

فماذا فعل المسمى هيرودس ؟!

« حينئذ دعا هيرودس المجوس سراً وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر .

« ثم ارسلهم الى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي .

« ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي انا أيضا وأسجد له .

« فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبي .

« فلما رأوا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا .

« وأتوا الى البيت ورأوا الصبي مع مريم امه .

« فخروا وسجدوا له .

« ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبا ولبانا ومُرّاً .

« ثم إذ أُوحي اليهم في حُلم ان لا يرجعوا الى هيرودس انصرفوا في طريق اخرى الى كورتهم .

« وبعد ما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا قم وخذ الصبي وأمه واهرب الى مصر وكن هناك حتى اقول لك .

« لأن هيرودس مزمع ان يطلب الصبي ليهلكه .

« فقام واخذ الصبي وأمه وانصرف الى مصر .

« وكان هناك الى وفاة هيرودس » .

الأحداث تتحدث عن المسيح .. عليه السلام ..

هناك تدبير إجرامي من هيرودس ليتخلص من الأطفال حفاظاً على مُلكه .

وكما أُخذ المولود عيسى ليلاً إلى مصر .. فراراً به من هيرودس ..

فإن اليصابات فرت بمولودها يحيى .. عليه السلام .. الى الجبال .. حتى لا يظفر به الزبانية ويذبحوه .

مولودان .. عظيمان ..

أحدهما .. يفرون به إلى مصر ..

والآخر .. يفرون به إلى الجبال !.

لمـــاذا ؟!.

لأن وهماً سيطر على رأس المتـُل .. أن هناك طفلاً .. من هؤلاء المولودين سوف ينتزع منه مُلكه !.

ولو علم المذكور .. أن هؤلاء عيسى .. أو يحيى .. لا يطلبون دنيا .. وإنما جاءوا ليزهدوا فيها .. ما فعَلَ ما فعل !.

ثم ماذا كان من المسمى هيرودس ؟!.

« حينئذ لما رأى هيرودس ان المجوس سخروا به غضب جداً .

« فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس » !.

مذبحة يقيمها المجرم الأثيم .. أو قُل إجرام ما بعده إجرام ..

أن يُذَبِّح صغاراً رضَّعـــاً .. بدلاً من أن يعطف عليهم ويبتسم في وجوههم البريئة .. :

ولو قد ظفر خلالها .. بالصبي يحيى .. أو الصبي عيسى .. لذبحهما تذبيحاً !.

فإنهما كانا الهدف الرئيسي لتكتيكه القبيح !.

والجريمة تزداد قبحاً وبشاعة .. إذا كانت واقعة على من لا يملك الدفاع عن نفسه :

« اشتد غضبي على من ظلم من لا ناصر له سواي » !. — أو كما قال — ونحن يشتد غضبنا على مثل هذا المجرم .. لأنه يأمر بذبح أطفال صغـــار .. تحرم جميع الشرائع .. وجميع التقاليد البشرية مساسهم بسوء !.

ولو قد أقام مذبحة .. للرجال .. لقلنا مَلِك يخشى الثورة على ملكه .

رغم أن ذبح الرجال إجرام شديد ..

إلا أنه لا يبلغ بشاعة وشناعة اجرام تذبيح الأطفال !.

ومن قبلُ فزع موسى فزعاً شديداً .. حين رأي الخضر .. يقتل طفلاً ..

وصاح به : « أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا » .

أي : مُنكراً .. وفعلت فعلاً غـــير معروف .. تنكره الشرائع .. وتنكره الطباع !.

فزع موسى لقتل طفل واحـــد .. رغم أنه يعلم أن القاتل مأذون له .. لحكمة إلهية ..

ورغم هذا .. فزع ولم يحتمل الفعلة !.

« وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين .

« فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا .

« فأردنا ان يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما » .

ثم يبين عملاق الحقيقة .. أن ما فعل ليس عن أمره .. وإنما عن أمر الله ..

« وما فعلته عن أمري .

« ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا » !.

فكيف وهيرودس هنا .. يقتل مئات الأطفال .. لا طفلا واحداً ؟!.

ان البشرية كلها لتفزع فزعاً ليس كمثله فزع .. من تلك الجريمة الكبرى !.

ولعلك الآن تقول معي : ان أعظم المصـــائب أن تكون السلطة في أيدي الأوباش .

ولو كان هذا الهيرودس ذا عقل .. لبادر إلى هذين الصبيين الجميلين البريئين الزكيين المباركين المقدسين .. والتمس بركتهما ونورهما ..

ولكن شؤم إجرامه .. وظلمة إظلامه .. لحقته .. فأعمته عن أي خير !

فهل وقف إجرامه عند تلك المذبحة .. مذبحة قتل الأطفال دون السنتين؟!

كلا .. انه ذهب إلى ما هو أدهى وأمَرّ ..

انه اعتبر زكريا .. مسئولاً عن غياب ابنه الرضيع يحيى ..

ثم عاقبه على ذلك .. وأمر بقتله !.

هكذا .. يفعل المجرمون .. حين يحكمون ويتسلطون !.

أخبر الزبانية هيرودس أن طفلاً لزكريا .. لم يُقتل ..

فغضب المجرم .. وأمر بتهديد وتعذيب زكريا أشد العذاب .. حتى يعترف أين أخفى الطفل ؟!.

وعذّب الزبانية .. نبيّاً عظيماً .. وشيخاً فانياً .. وما رعوا للنبوة حرمة .. ولا للشيخوخة وقاراً !.

يريدون منه أن يعترف .. ومن أين له الاعتراف .. وهو لا يعلم مكان طفله .. ولا مكان أمه اليصابات ؟!.

ان اليصابات بمجرد أن سمعت بما عزم عليه هيرودس من قتل جميع الأطفال دون السنتين .. فرت برضيعها إلى البراري والجبال .. واختبأت به بعيداً عن أورشليم وما حولها .. وما يجري فيها .

فزكريا لم يكذبهم .. لأن الأنبياء لا يكذبون .. ولكنهم لا يصدقون !.

وصبوا عليه التعذيب صباً .

ولم يظفروا منه بجواب يشفي غليلهم ..

وجاءوا الى كبيرهم يُهرعون ..

ونبأوه أن زكريا .. لا ينفع معه تهديد ولا تعذيب .

هنالك علا واستعلى .. ونفخ وانتفخ وأصدر اليوم أمراً ..

اقتلوا زكريا ..

« فقُتل زكريا .. بين الهيكل والمذبح .

« قُتل زكريا .. النبي !.

« قتل زكريا .. الشيخ الذي تجاوز المائة !.

« قتل زكريا .. في المحراب الذي طالما عطره بأنفاسه الشريفة .. وتراتيله المقدسة !.

قتل زكريا .. في المحراب الذي نادته فيه الملائكة .

وترشّش دمه الزكي .. شاهداً .. على اجرام المجرمين .

جريمة .. وأي جريمة هي أكبر من قتل الأنبياء ؟!.

جريمة .. وأي جريمة هي اعظم .. من قتل نبي .. وهو يصلي في المحراب ؟!.

هكذا المجرمون حين يحكمون .. وكذلك يفعلون !.

في المحراب ؟!.

يُقتل زكريا ؟!.

ليتهم إذ قتلوه قتلوه في بيته .. أو في فراشه .

ولكن في المحراب ؟!.

في أقدس مكان من بيت المقدس .. بين الهيكل والمذبح ؟!.

اهدار لحرمة البيت المقدس ..

وإهدار لحرمة النبي ..

وإهدار لكل القيم والمقدسات ؟!.

واسمع ماذا قال المسيح .. عليه السلام :

« ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين .

« وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء .

« فأنتم تشهدون على انفسكم انكم ابناء قتلة الأنبياء .

« فاملأوا انتم مكيال آبائكم .

« ايها الحيّات أولاد الافاعي كيف تهربون من دينونة جهنم .

« لذلك ها أنا ارسل اليكم انبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة الى مدينة .

« لكي يأتي عليكم كل دم زكيّ سُفك على الارض من دم هابيل الصدّيق الى دم زكريا بن برخيّا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح .

« الحق أقول لكم هذا كله يأتي على هذا الجيل .

« يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين » !..

ولتفهم الأجيال .. ما شاء الله لهـــا أن تفهم .. من كلام المسيح .. عليه السلام ..

فإنه أفق أعلى .. ومستوى أرفع ..

فطوبى لمن أوتى فيه فهماً وعلماً !.

ولنرجع الى قاتل زكريا .. ذلك الأفاك هيرودس ..

في أي تهمة قَتَل زكريا ؟!.

لا تهمة .. وهذا ما يثير ضحك الأجيال !.

التهمة والجريمة الكبرى .. أن زكريا .. لم يرشدهم الى مكان الطفل يحيى !.

وكيف يرشدهم وهو لا يعلم مثلهم أين يحيى ؟!.

هذه هي التهمة .. التي استوجبت عند الأفاك .. أن يُقتل زكريا ؟!.

ولكنهم الأوباش .. إذا حكموا .. وفعلوا ما شاءوا !.

وماذا يريدون من الرضيع يحيى ؟!.

يريدون أن يذبحوه كما ذبحوا المئات !.

لماذا ؟!. لأن المجنون هيرودس .. توهم وهماً ..

تحول عنده إلى عقيدة متسلطة على رأسه ..

أن لو ترك المولود الذي وُلِد .. سوف يكون مَلِكاً .. فسوف ينتزع منه مُلكه !.

إذاً فليُذبح جميع الأطفال .. حتى سنتين !.

حتى لا يفلت طفل يكون بدلاً منه مَلِكاً !.

مجرد وهم ..

مجرد نبوءة سمعها .. من بعض المجوس ..

يُذَبَّح فيها الأبناء !.

ويُقَتَّل فيها الأنبياء !.

يتيم ... في ... الصحراء ؟!...

« إنّا كل شيء »

« خلقناه بقدر » !..

آية مُحكمة .. إذا ألقيتَ في بحـــارها .. السماوات والأرض .. لابتلعتها كأنها ذرّة واحدة !.

إنها ناموس .. جامع مانع ..

كلّ شيء ؟!.

كل ما كان وما سيكون .. صغيراً أو كبيراً ..

خلقناه بقَدَر ؟!.

أوجدناه .. بتقدير .. بتخطيط غاية في الإحكام والإبرام !.

ومن هذا الناموس .. ننظر ونتفكر .. لماذا جرت المقادير .. أن يُلقى الرضيع يحيى .. الى البراري والجبال ؟!.

لماذا لا ينشأ في أورشليم .. بين رياشها وبيوتها ؟!.

لأن المطلوب إعداده .. ليكون ثائراً على تلك الأوضاع المتعفنة كلها ..

فتحتم أن يُنزع منها نزعاً .. وأن تتدافع الأحداث .. لتضطر والدته إلى الفرار به بعيداً .. الى الجبال !.

ترتيب .. وتدبير .. ظاهره العذاب .. وباطنه الرحمة والحنان ..

ولو نظرت ثم نظرت .. سيَر الأنبياء .. لوجـــدت في تاريخ أكثرهم .. حوادث تدفعهم دفعاً إلى الصحراء .. بعيداً .. عن مفاسد المدن وعفوناتها ..

ويكفيك في هذا السبيل مثالاً ..

مثال موسى .. عليه السلام ..

جرت المقادير .. بحيث ألجأته إلى الفرار .. الى الصحراء .. بعيداً عن العاصمة ومفاسدها ..

« ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين » .

« فخرج منها خائفاً يترقب » !.

فظاهر الحادثة عذاب .. خوف .. واتهام بالقتل .. وفرار ..

ولكن باطنها الرحمة الكبرى ..

« وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا » !.

باطنها .. الرحمة الكبرى ..

نُوديَ : يا موسى .. إني أنا ربك ..

وكان ما كان .. مما تزدحم به حيـــاة الكليم .. عليه السلام .. من رحمات وعطايا !.

والحكمة من إلجاء الأنبياء .. الى الهجرة إلى الصحراء .. أن ينشأوا في صفائها ونقائها .. وبعدها عن عفونات المدنيات ونجاساتها !.

ثم يعودون من بعدها .. ليطهروا ما فسد في حياة الناس .

وهذا ما حدث بالنسبة إلى النبي .. يحيى .. عليه السلام ..

رُعب .. فزع .. أطفال تُذبح .. بحث عن طفل اسمه يحيى .. ليُذبح ..

كل ذلك .. ألجأ اليصابات أن تحتضن وحيدها وفريدها وقرة عينها .. والذي جاءها بعد يأس يئيس .. وتفر به الى الجبال ليلاً .. وتختبىء به بين المغارات والكهوف !.

هذا هو الظاهر .. الذي فيه العذاب ..

أما الباطن .. الذي فيه الرحمـــة .. فهو أن ينشأ الطفل في حرية تامة .. في نقاء الصحراء .. وفطرة البراري .. وانطلاق الجبال ..

فلا سلطان لأحد عليه إلا لله !.

ما من نبي إلا رعى الغنم » – أو كما قال –

ومعلوم أن رعي الغنم .. يكون في الجبال والمراعي والصحراء والبراري ..

ومكثت أمه به ست سنين في البرية ..

ثم توفاها ربها .

وأصبح الطفل يتيما .. بل لطيما .. لا أم ولا أب ..

ولا أخت ولا أخ ..

وحده .. صغيراً ..

هنالك .. كُشف له الغطاء .. عمن يتولاه ..

إنه .. وليّه ومولاه ..

ومَن يكون غير الله ؟!.

انظر .. كيف يُربي الله أنبياءه ؟!.

النمط الطبيعي .. والدان يربيان ولدهما ..

فليذهب الوالد .. ثم لتذهب الوالدة ..

وليُترك الصغير وحده ..

لمـــن ؟ ! .

لنا .. إنا نحن الله ..

نحن نرعاه .. ونسقيه .. ونطعمه .. ونكسوه .. ونهديه .. ونعطيه ..

فكيف كان ذلك ؟!.

ألهمه ربه .. أن يطعم من عسل النحل .. الذي يسيل من شقوق الجبال ..

ولنعم الطعام عسل النحل ..

وأن يأكل .. مما يتيسر له من الجراد البري .

وأن يتخذ من جلود الأنعام التي ترعى من حوله كساء !.

رزق طيب طهور ..

ترعرع الغلام .. منه .. ونبت نباتاً حسناً !.

لا ينبغي أن تُستهلك طاقات هذا الغلام .. في البحث عن الرزق ..

ان طاقاته أثمن من ذلك ..

انها ينبغي أن تخصص لنا ..

« وآتيناه الحكم صبيا » ..

ليكون من بعد نبياً ..

ينبغي أن يتفرغ لنا .. من أجل ذلك خلقناه ..

يقول المسيح .. عليه السلام :

« لكن ماذا خرجتم لتنظروا .

« أإنسانا لابسا ثيابا ناعمة .

« هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك .

« لكن ماذا خرجتم لتنظروا .

« أنبيا .

« نعم أقول لكم وأفضل من نبي .

« فان هذا هو الذي كتب عنه ها أنا ارسل امام وجهك ملاكي الذي يُهيىء طريقك قدامك .

« الحق اقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » !.

أإنساناً لابساً ثياباً ناعمة ؟!.

لا تنتظروا أن يكون يحيى ذا ثياب ناعمة ..

لأن المترفين أعداء للحق .. لا يصلحون لحمل رسالات السماء ..

إنمـــا .. هو نبيّ ..

هو ملاك .. هو روح ملائكية علوية قدسية في جسم بشر ..

يتقدم ظهور المسيح .. عليه السلام ..

ليهيىء الطريق أمامه ..

ليحدث انتقالاً من المادية المسيطرة على النفوس .. إلى الروحية السامية ..

فتتمهد بذلك نفوس الناس .. لتتلقى تعاليم المسيح التي هي روحية بحتة ..

ولو قد ظهر المسيح .. من غير أن يتقدمه زهد يحيى .. لشق على النفوس فهم آفاقه الروحية البحتة ..

وإنما ليتقدم يحيى ظهور المسيح .. ليمهد النفوس للانتقال من المادية المظلمة إلى الروحية المضيئة ..

« الذي يُهيىء طريقك قدامك » !.

إنها عملية تدرج بالمجتمع من ظلمات المـــادة .. إلى نور الروح .. **« وروح منه » ! ..**

فالمطلوب أن يكون يحيى .. ملاكاً ..

ولكن الملاك لا يستطيع الناس أن يفيدوا منه .. لأنه مخالف لطبيعتهم .
« ولو جعلناه مَلكاً لجعلناه رجلاً » .

إذاً يكون يحيى .. فيه صفات الملائكة « وحناناً من لدنا .. وزكاة .. وكان تقياً » ..

ولكنه بشر .. ليستطيع أن يفهم عنه الناس ..

ويهيء الطريق أمام مفاهيم المسيح !.

ولتكن حياة يحيى من حيث الجسد .. مجرد الضروري لحفظ جسده .. ومنعه من الهلاك ..

لقيمات .. جرعات من عسل ..

كنٌ في الجبال يؤويه ..

جلود الأنعام يلبس منها وهذا يكفيه ..

لا ضرورة أن تكون له زوجة .. « وحصورا » .. لا لعجزه عن إتيان النساء .. فقد كان شاباً على أقوى ما يكون الشباب .. ولكن لغلبة الصفات العليا .. الصفات الروحية عليه .. حتى جعلته راهباً نبياً ..

« وكان يوحنا يلبس وبر الابل .

« ومنطقة من جلد على حقوَيْه .

« ويأكل جراداً .

« وعسلاً برياً » !.

هذه ملابس يحيى ..

وهذا طعام يحيى ..

قال ابن الأثير :

« قيل : انه قال له يوما الصبيان امثاله : يا يحيى اذهب بنا نلعب .

« فقال لهم : ما للعب خُلِقت .

« وكان يأكل العشب وأوراق الشجر .

« وقيل : كان يأكل خبز الشعير .

« ومرّ به ابليس ومعه رغيف شعير فقال : أنت تزعم انك زاهد وقد ادخرت رغيف شعير ؟!

« فقال يحيى : يا ملعون هو القوت .

« فقال ابليس : ان الأقل من القوت يكفي لمن يموت .

« فأوحى الله اليه : اعقل ما يقول لك » ا .

ويقول ابن الأثير :

« ونبّيء صغيراً .

« فكان يدعو الناس الى عبادة الله .

« ولبس الشعر .

« فلم يكن له دينار ولا درهم .

« ولا مسكن يسكن اليه ، أينما جنّة الليل أقام .

« ولم يكن له عبد ولا أمَة .

« واجتهد في العبادة ، فنظر يوماً إلى بدنه وقد نحل فبكى .

« فأوحى الله اليه : يا يحيى أتبكي لما نحل من جسمك ؟. وعزتي وجلالي لو اطلعت في النار اطلاعة لتدرعت الحديد عوّض الشعر .

« فبكى حتى أكلت الدموع لحم خديه ، وبدت أضراسه للناظرين » .

أقاصيص رواها ابن الأثير .. في كتابه الخالد « الكامل في التاريخ » ..

وموقفنا منها .. لا نصدق .. ولا نكذب ..

فإن صدقناها .. فإنما هي أضواء في الطريق ..

وإن كانت غير حق .. فلو حذفناها من الموضوع .. فهي لا تقـــدم ولا تؤخر ..

فإن كتاب الله .. رسم الخطوط العامة من شخصية يحيى .. عليه السلام ..

بما هو أشمل وأكمل .. وأصدق قليلاً ؟!.

« ومَن أصدق من الله حديثا » ؟!.

يا يحيى ... خذ !؟...

لست أدري ...

لماذا .. أحبُّ يحيى ؟!.

فالفرض ... على كل مؤمن .. أن يحب الأنبياء جميعاً ..

ولكن يحيى .. قد شغفني حُبّاً ؟!.

أحبه .. لأنه وُصف بوصف .. تفرد به « لم نجعل له من قبل سميا » !.

فكيف كان هذا الغلام .. حين نُودي : يا يحيى خذ » ؟!.

كان صبيّاً ؟!.

« وآتيناه الحكم صبيا » !.

استعداد ليس كمثله استعداد ..

وإمداد ليس كمثله إمداد !.

والذي يميل اليه قلبي .. أن يحيى نُبىء صغيراً ..

وليس هذا بالشيء في قدرة الله .. والإشارة إلى ذلك مكنونة في قوله سبحانه « « كذلك قال ربك هو عليّ هيّن » ..

فما نبوة يحيى صغيراً .. بأعجب من خلقه من أبوين مستحيل أن يكون منهما إنجاب ..

وليكون يحيى آية في مولده .. وآية في نبوته ..

وعجيب أن يعجب الناس من قدرة الله ..

ومعلوم ان القادر القدير المقتدر .. هو على كل شيء قدير ؟!.

عقولنا قد عقلتنا .. فلم نستطع أن نفهم أعماق .. ان الله على كل شيء قدير !.

وأي غرابة أن يُنبأ يحيى صغيراً .. وقد نُبىء عيسى صغيراً .. « ويكلم الناس في المهد » ؟!

وهل الكلام المحكم .. من المولود لساعته .. إلا طلائع نبوة ؟!

هل مثل هذا :

« اني عبد الله .

« آتاني الكتاب .

« وجعلني نبيا » ..

هل يكون مثل هذا الاحكام .. من مولود .. إلا طلائع نبوة ؟!.

بل .. وهذا من بديع .. إشارات الكتاب .. قد تولّى المولود .. الرد على المتعجبين أن يُنبّأ الصغير .. حين قال « وجعلني نبيا » ؟!:

كأنه يريد أن يقول : أنا من الآن نبيّا !.

سبحانك اللهم .. ما أعظم ما يحوى كلامك من إشارات ؟!.

كيف يكون عيسى نبيا .. وهو مولود لساعته ؟!.

فنقول : بل قد كان نبيا .. قبل أن يُولد .. فلا تعجبوا .. وإنما هي مواقيت يخرج فيها صبياً .. فلما كذبوها واتهموها .. نطق بالحق من أمر والدته المطهرة ثم أذاع في تلك المناسبة .. بدايته ونهايته .. وكل رسالته .. مقدماً .. على الناس .. ليكون الحجة الأولى عليهم :

« قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا .

« وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً .

« وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً .

« والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » !.

نبئني بربك .. ماذا بقي من جميـــع حقيقة المسيح .. وحقيقة رسالته بعد هذا البيان ؟!.

اللهم لا شيء .. إلا وقوع ذلك فيما بعد .. في موعده .. تفصيلاً بعد أن أذيع ما هنا إجمالاً !.

ولذلك كانت الآية التي تأتي بعد ذلك مباشرة :

« ذلك عيسى ابن مريم » !.

أي ذلك كل شيء عن عيسى ..

أنطقناه به .. مولوداً .. بقدرتنا ..

ليسجل مقدماً .. وقبل أن نبعثه الى النـــاس « كهلا » حقائق أمره ورسالته ..

« ويكلم الناس في المهد وكهلا » !.

فكلامه في المهد .. طلائع نبوة ..

وكلامه كهلاً .. تحقق نبوة ..

وإنما اقتضت حكمة الله .. أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ..

وعقولنا لا تطيق أن يكون النبي الذي يدعونا إلى الله .. طفلاً ..

وإنما نريده رجلاً .. لأن النواميس التي تسري فينـــا .. أن الأطفال لا يعقلون ..

فرحمة بنا خوطبنا من رجال أنبياء ..

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم » ..

تنزلاً إلى مستوى أفهامنا .. حتى لا تكون فتنة ونتسارع إلى التكذيب .. كما كذّب هؤلاء وقالوا :

« .. كيف نكلم من كان في المهد صبيا » ؟!.

انها مقتضى الرحمة .. مقتضى التنزل الى ما يستطيع البشر أن يفهموه ..

أما القدرة .. فتقول : لو شئنا لبعثنا أطفالاً .. ينطقون بالحق الحكم .. الذي سوف ينطقون حين نبعثهم كباراً .. ولكن الناس يكذبون .. فرحمناهم .. وأرسلنا اليهم رجالاً !.

ولقد أعطانا الله مثلاً جميلا .. في عيسى .. عليه السلام ..

حين كلّم الناس .. في المهد .. بكل ما سوف يقوله لهم .. رَجُلا !.

وهذا باب عريض .. ألمحنـــا اليه .. إشارة من بعيد بعيد .. الى بدائع القدرة ..

فلا غرابة أن يُنبّأ يحيى صغيراً ..

وأن يخاطب صغيراً : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » !.

وأن يفهم يحيى .. صغيراً الخطاب ..

يفهمه من لدنه .. لا من نفسه ..

ويوحى اليه الله ما يشاء ..

ويعلمه الكتاب .. كله .. التوراة .. وكل تراث الأنبياء من قبله .. ويوجهه إلى أخذ الكتاب بقوة .. بعزم الأنبياء .. صغيراً ..

حتى إذا شب .. كان مهيئاً لأداء ذلك إلى الناس ..

فإذا عجب الناس .. كيف يأتي ذلك لصغير .. كان الجواب هـــو بقية الآية :

« وآتيناه الحكم صبيا » .. أي آتيناه النبوة صغيراً .. وآتينـــاه الكتاب صغيراً .. وآتيناه الفهم صغيراً .. تمهيداً لقيامه بأداء ذلـــك إلى الناس كبيراً ..

وكان ذلك تنزلاً .. ورحمة بعقول الناس ..

ولكن القدرة تقدر أن تبعثه صغيراً .. وتنطقه بمنطق الأنبياء صغيراً ..

كما قد أريناكم في نطق المسيح .. في المهد صبيا !.

فلا تعارض إذاً .. ولا إشكال بين مَن قال « آتيناه الحكم صبيا » أي فهم التوراة صغيراً .. وبين مَن قال « آتيناه الحكم صبيا » أي النبوة صبيا ..

وإنما المعنى الشامل المتكامل .. أعددناه للنبوة والكتاب والعمل بالكتاب بقوة صغيراً .. وأمرناه بأداء ذلك ودعوة الناس اليه كبيراً ..

واعلم أن أحوال الأنبياء . لا تقاس بالعقول . وإنما تُفهم بالتسليم ..

« فاخلع نعليك .

« إنك بالواد المقدّس طوًى » !.

شخصية ... يحيى ...!؟

فتح جديد ...

في هذا الباب .. من هذا الكتاب ..
مَنَّ به .. المنّان .. الوهاب !.

وهذا الفتح خلاصته استخلاص .. شخصية يحيى .. عليه السلام .. من مقيمين اثنين ..

دعاء زكريا .. عليه السلام ..

واستجابة الله .. لدعاء زكريا .. « فاستجبنا له » ..

أي العناصر التي حددها زكريا .. في دعائه ..

والعناصر التي حددها الله سبحانه في الاستجابة لذلك الدعاء ..

باب جديد .. طريف غاية الطرافة .. في تحليل الشخصية ..

ويزيده جمالاً .. أنه مسجل في كتاب الله الكريم ..

وما سجله الكتاب فهو الحق الذي لا شك فيه !.

والآن ندخل .. الى المنبع الأول وهو الخطوط العريضة .. من شخصية يحيى .. كما حددها دعاء زكريا .. المسجل في كتاب الله ..

١ – وإني خفتُ الموالِيَ مِن ورائي .

زكريا يخاف الورثة .. يخاف رجال الكهنوت من بعده .. لأنهم غير أمناء

على الأمانة .. فهو يريد غلاماً أميناً .. يحمل النبوة من بعده .. هذا عنصر . .

٢ — فهب لي من لدنك وليا .

رأساً .. منك .. لأن الوالد والوالدة ميئوس منهما .. هب لي من يَلي هذا الأمر من بعدي .. وارثاً يرثني ..

٣ — يرثني ويرث من آل يعقوب .

يرث عني النبوة .. ويرث الصفات العليا .. ويرث كذلك جميع التراث الذي تركه الأنبياء من قبلي .. من يعقوب .. حتى زكريا .. أي جميع تراث بني اسرائيل .. يوسف .. موسى .. هارون .. داوود .. سليمان .. أيوب .. يونس .. وهكذا ..

أي شخصية جامعة .. أوتيت القدرة على استيعاب ذلك كله ..

٤ — واجعله ربّ رضيا .

في أعلى قمم الرضا عنه .. والرضا منه .. الله يرضى عنه أتم الرضى .. وهو يرضي الله أتم الرضى .. أي يستكمل صفات الكمال ..

فالعناصر التي حددها زكريا في دعائه لشخصية الغلام الذي يرجوه هي :

١ — انتقال النبوة اليه .. وليس الى هؤلاء الكهان الذين فرطوا في الامانة.

٢ — ان يوهب هذا الغلام من لدن الله .. لا بالناموس الطبيعي .. لأنه عاقر وزوجه عاقر .

٣ — ان يرث هذا الغلام النبوة عن زكريا .. والتراث الموروث عن الانبياء من قبله .

٤ — أن يكون هذا الغلام .. في قمة الكمال .. كمال الأنبياء .

أي أنه حدّد الخطوط العريضة في تصوره للغلام .. بالآتي :

نبي .. عظيم .. تنتشر عظمته رغما عن رجال الكهنوت المتخصصين للكهنوت .

فتنتقل الرسالة اليه .. رغما عنهم .. بارادة الجماهير التي تعلقت قلوبهم به .. لما يحسونه منه من صدق وإخلاص لا يجدونه في رجال الكهنوت التقليديين .

أي رجل ثورة تكتسح عفونات الكهنوت .. وتكتشف زيفها امام الجميع !

وهذا ما قد كان .

فقذفت المقادير .. بالطفل بعيدا عن اورشليم .. وكهنوتها .

وانبتته في البرية والجبال ..

فنشأ مجرداً من التقاليد .. متحرراً من ضغوط المجتمع .

وباعدت بينه وبين ملابس الكهنوت التقليدية .

وإنما يلبس من وبر الابل .. ويتمنطق بالجلود .. ويأوي الى الكهوف !

ومن الحتم ان يكون قائد الثورة الجديدة .. على الأوضاع الدينية الفاسدة هكذا !

ومن البرية .. صرخ صوت .. فجلجل ودَوّى .

كما اشتهر عن يحيى .. « صوت صارخ في البرية » !

وتزداد الجماهير تعلقا بهذا الصوت الصادق الجديد .. ويزداد إعجابها ورضاها عنه .. كلما ازداد زهداً في الدنيا .. وسموا الى اعلى .. ازداد حب الجماهير له وإعجابا به وهذا معنى « واجعله رب رضيا » .. يرضى عنه المحبون له أتم الرضا .. لما يشهدون من سموه ورقيه وكماله !.

هذه عناصر .. شخصية يحيى .. كما حددها دعاء زكريا ..

فهل جاء يحيى .. طبق الأصل من تحديد دعاء زكريا ..

نعم .. بنص القرآن « فاستجبنا له .. ووهبنا له يحيى .. وأصلحنا له زوجه » .

أي فآتيناه كل ما طلبه ..

لمـــاذا ؟!.

« انهم كانوا يسارعون في الخيرات .

« ويدعوننا رغبا ورهبا .

« وكانوا لنا خاشعين » .

كانت هذه صفات زكريا .. وصفات زوجه اليصابات ..

ومن أمواج هذه الصفات العليا .. كانت صفات المولود لهما .. العليا ..

وجاء يحيى طبق الأصل .. من صفات أبويه ..

وطبق الأصل .. من عناصر دعاء والده ..

فما دليل ذلك ؟!.

الدليل .. ما سجّله الكتاب الكريم ..

وعناصر شخصية يحيى .. التي وردت في تسجيل استجابة الله لزكريا ..

في قوله سبحانه :

« .. أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله .

« وسيّداً .

« وحصورا .

« ونبيا من الصالحين » .

وفي قوله سبحانه :

« يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى .

« لم نجعل له من قبل سميا » .

وقوله سبحانه :

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة .

« وآتيناه الحكم صبيا .

« وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا .

« وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا .

« وسلام عليه يوم يولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » .

هـــذه هي جميع الخطوط العريضة .. من شخصية يحيى .. كما سجلهـــا كتاب الله العظيم .. وكما سجلتها البشرى الى زكريا ..

وها هي تلكم العناصر المُثلى :

١ — مصدقاً بكلمة من الله ..

أي مصدقاً بالمسيح ابن مريم .. عليه السلام .. المخلوق بكلمة من الله .. كن فيكون .. من غير أب ..

مصدقاً بالمسيح .. ومبشراً به .. وداعياً إلى الإيمان به ..

٢ — وسيّداً ..

وعظيما ليس كمثله عظيم .. يَعلو على أهل زمانه ولا يُعلى عليه ..

سيعترف له الجميع بالعظمة والإمامة ..

وقد كان يحيى هكذا .. تتوافد اليه الجمـــوع لتستمع اليه .. ويعظمه من أحبه .. ويهابه من عاداه !.

٣ — وحصوراً ..

يحصر نفسه عن الشهوات كلها .. ويحبسها عن الدنيا .. حـــتى عن النساء اللاتي أحلهن الله ..

مثلاً أعلى .. في حبس النفس عن جميع الشهوات ..

٤ – ونبيا ..

آتيناه النبوة .. وأعطيناها اليه .. بصفاتها العُلى .. وأحوالها الشريفة .. التي لم يذقها من الناس .. إلا الأنبياء ..

٥ – من الصالحين ..

من أعلى مراتب الصالحين ..

من الكاملين في الصلاح ..

من الصالحين .. أن يُقتدى بهم .. في أمورهم كلها .

٦ – لم نجعل له من قبل سميا ..

ليس له مِثل في الأنبياء الذين جاءوا من قبله ..

سينفرد بشخصية جديدة .. غير مكررة ..

سيكون صوتاً جديداً .. ونغماً فريداً .. لم يُرتّل من قبل ..

٧ – يا يحيى خذ الكتاب بقوة ..

نفّذ كل ما في التوراة .. وما أوحينا إلى الأنبياء من حولهـــا .. بعزيمة خارقة .. لا يستطيعها إلا أنت .. لتكون للناس أسوة .. وإماماً ..

٨ – وآتيناه الحكم صبيا ..

آتيناه الاستعداد للنبوة صغيراً .. فكان أبرع أهل زمانه حفظاً للتوراة والشرائع وفهماً لأسرارها .. واستنباطاً لأحكامهـــا .. وداعياً إلى تنفيذها بروحها لا برسومها بغير تغلغل إلى حقائق التشريع ..

٩ – وحناناً من لدنا ..

انفرد بظهور الحنان فيه .. من دون الأنبياء من قبله ..

فما رآه أحد إلا أحبه .. لمــا يلمسه في شخصيته الجديدة .. من حنان عظيم .. يفيض على من رآه أو سمعه أو خالطه !.

١٠ – وزكاة ..

ورُقِياً .. كان راقياً جداً .. رُقياً يثير إعجاب الجميع ..

١١ – وكان تقيا ..

على الغاية من التقوى .. ليس أحد في عصره هو أتقى منه .. يخاف ربه أشد الخوف .. ويهابه ويخشاه في علانيته وسره ..

وخوف الانبياء .. ليس كمثله خوف !.

١٢ – وبرا بوالديه ..

على الغاية من البر بوالديه .. وأعظم البر بوالديه .. أن يواصل ما كانا عليه .. من بِرّ وخيرات .. فقد كان على صفاتهما وزيادة ..

١٣ – ولم يكن جباراً ..

هو منكسر لربه .. ليس فيه أدنى من ذرّة من كِبر أو استعلاء ..

والانبياء منكسرون لربهم أبداً ..

وهذا سر عظمتهم عند ربهم ..

يستحيل أن يكون يحيى جباراً .. لأنه كان « حناناً » ..

ومَن كان « حناناً » لا يكون قط « جبّاراً » ..

لأن هذه تضاد تلك !.

١٤ – عصيا ..

ولم يكن قط .. عصياً ..

لم تصدر عنه معصية قط ..

وهذا شرف يتيه به يحيى .. أستغفر الله .. بل لا يتيه .. فالأنبياء منزهون عن التيه !.

١٥ – وسلام عليه يوم ولد ..

سيولد يحيى أمواجاً من سلام ..

سيخرج من بطن أمه .. سلاماً للعالمين ..

سيكون موجة سلام .. تدعو إلى السلام ..

١٦ – ويوم يموت ..

وسلامٌ عليه يوم يموت .. سوف يمـــوت .. في مرتبة .. ودرجة .. وموجة السلام ..

١٧ – ويوم يبعث حيا ..

وسلامٌ عليه .. يوم يُبعث حيّاً ..

هنالك سيكون يحيى .. في الانبياء .. ضمن موجهم .. موج السلام ..

سيُولد يحيى .. سالماً من كل نقص ..

وسيموت سالماً من كل نقص ..

وسيبعث سالماً من كل نقص ..

فهو في الكمال مولوداً .. وفي الكمال حين يموت .. وفي الكمال حين يبعث ..

سبعة عشر عنصراً من عناصر .. شخصية يحيى .. سجلها كتاب الله العظيم ..

فكانت هي الخطوط العريضة .. لشخصيته الفريدة .. الفذّة .. المنفردة عن غيرها من شخصيات الأنبياء ..

منها عناصر هي طبق الأصل من العناصر التي حددها زكريا في دعائه .. وكان حتما أن تكون كذلك .. لأنها تحققاً لقوله سبحانه « فاستجبنا له » ..

ومنها عناصر لم ترد في دعائه .. بل لم تخطر على بال زكريا حين دعائه !

فما سر ذلك ؟

سره .. ان تلك العناصر .. هي من مقام « وزيادة » أي استجبنا له في كل مطالبه .. وزدناه في يحيى ما لا يخطر على باله .. لأن بال البشر محدود .. وعطاء الله لا محدود ..

استجاب الله لزكريا .. في رجائه كله ..

ثم تجلى بمنّه .. وفضله .. وكرمه .. وجوده .. فزاده ما شاء من العطايا في يحيى ..

فجاء يحيى .. تحققاً للخطوط التي تصورها والده زكريا ..

ثم زادها الله حُسناً .. فأعطى ما أعطى .. وما أدراك ما أعطى ؟.

ما لا خطر على قلب بشر ..

ولا على قلب زكريا ..

وتلك سُنّة الكريم سبحانه .. مع أحبابه ..

إذا أعطاهم .. أعطاهم ما سألوا .. ثم زادهم ما لم يسألوا .. ولم يخطر على قلوبهم !.

« للذين أحسنوا الحسنى

« وزيادة » !.

« لهم ما يشاءون فيها .

« ولدينا مزيدٌ » .

لهم ما يشاءون ؟!.

ودائماً .. لدينا .. مزيد !.

نفاجئهم به .. زيادة سرور لهم ..

ولولا أن يكون هذا الكتاب .. كتاباً طويلاً ..

لفصّلتُ لك الأمر تفصيلا ..

فذكرنا لك ما جاء في العناصر السبعة عشر .. مطابقاً للعناصر التي طلبها زكريا ..

وما جاء زيادة عليها ..

كأن لسان القُدرة يريد أن يقول :

يا زكريا .. إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا .

سألتنا غلاما .. حسب تصورك .. ولنعم التصور .

ولكن دعنا نحن نصوره أحسن تصوير .. وليس كمثل تصويرنا تصوير .

وكأن لسان زكريا يسأل : فكيف يكون إذاً يا رب ذلك الغلام ؟!

وكأن لسان القدرة يقول : يا زكريا .. تلقيت البشرى بقولك : أنى يكون لي غلام .

فالآن تشهد .. أنّا قادرون .

ليس فقط على أن نهبك غلاما .

ولكن غلاما « لم نجعل له من قبل سميا » !.

من لدنك ... من لدنا ؟!...

قلنـــا ...

ان يحيى .. جاء تحققاً للعناصر التي طلبها زكريا .. في دعائه ..

مضافاً اليها .. عناصر أخرى .. من الله .. لم تخطر على بال زكريا ..

وأن الأوصاف التي وردت في البشرى بيحيى .. تحوى ما طلب زكريا .. وما زاده الله عليها .

وها هنا سؤال جميل : مِثل ماذا هذه الزيادة ؟!

فنقول مِثل هذا ..

طلب زكريا في دعائه : **« هب لي من لدنك وليا »** .

والمفتاح في كلمة « من لدنك » !.

من لدنك .. بغير قانون الأسباب والمسببات .. بغـــير ناموس التناسل المألوف .. كلانا عاقر .. أنا وهي .. وكلانا بلغ من العمر عتيا .. أنا وهي .. فلو طبقت علينا قانون التناسل .. فهناك استحالة .. والنواميس جامدة .. لا يبدلها ولا يحولها إلا أنت .. إذاً .. من لدنك .. أنت الذي يملك هذا وحده ولا يوجد أحد على الإطلاق يملك هذا سواك !.

أنت المَلك .. وأنت المليك .. وأنت الفعال لما يريد .. وأنت الفعال لمـا يشاء .. فلا يقدر أن يهب لي غلاماً .. وأنا وهي على ما نحـــن عليه من موانع العُقر والكِبر .. إلا أنت .. فتحتم أن يكون هذا .. **« من لدنك »** .. إذا قلت .. كُن .. فحتما هذا الغلام .. يكون .

ها هنا المفتاح .. في هذه .. في « من لدنك » .

هناك يقين من زكريا .. أن هناك حتمية أن يكون الغلام من لدنه سبحانه .

فماذا كان ؟!. استجابة تامة لزكريا .

طبق الأصل لما حدّد في مطلبه :

« يا زكريا إنا نبشرك بغلام » !.

طلبت أن نهب لك غلاماً .. من لدنا .. فخذ يا زكريا غلاماً .. من لدُنا .

من غير النواميس التي أجريناها في جميع الناس .

مِن لدُنا .. كما طلبتَ وكما رجوت !.

حتى هنا تحقق ما طلب زكريا .

فأين الزيادة .. على ما طلب ؟!.

ها هي الزيادة :

« وحنانا .. من لدنا » !؟.

زكريا طلب غلاماً فقط من لدُنه .

فأعطاه الغلام .. وزاده من لدُنه .. حنانا !.

وهذا ما لا خطر على قلب زكريا !.

أقصى ما كان يأمل زكريا .. أن يَمُنّ الله عليه بغلام .. أن يخـــرق له النواميس في هبة غلام لعاقرين بلغا من الكِبَر عتياً .

ولكن الكريم .. الأكرم .. إذا وهب .. وهب بنسبـــة كرمه الذي لا يتناهى ..

فوهب له غلاماً .. وزاده « حنانا » .. من لدنه .. لا يتناهى ..

فجاء الغلام .. من مرتبة « من لدنك » ..

لا كما حدَّده زكريا ..

ولكن كما أكرمه ربه .. « وحنانا من لدنا » !.

ما كان زكريا .. يدري أن الله سيكرمه ذلك الإكرام ..

وما كان يطمع أن يزيده تلكم الزيادة العظمى ..

ولو قد بَشَّره ربه بقوله « يا زكريا إنا نبشرك بغلام » .. ووقف عند هذا .. لخَرّ زكريا ساجداً لفوره .. شكراً على جسيم النعمة أن خُرقت له النواميس .. وكان هذا فضلاً عظيماً ..

ولكن الكريم .. لا نهاية لكرمه ..

تسألنا يا زكريا غلاماً ..

فخُذ غلاماً .. ومعه إكراماً ..

خُذ .. معه .. مصدقا بكلمة من الله .. هل كنت تدري شيئاً عن هذا ؟! سيكون هذا الغلام أول من يُصدق بالمسيح .. فهل تعلم شيئاً عن هـــذا ؟!. ألا فاعلم ..

خُذ .. معه .. وسيداً ..

خذ .. معه .. وحصوراً ..

خذ .. معه .. ونبيا ..

هل ذهب بالك إلى شيء من أولئك ؟!.

خذ .. مع الغلام .. لم نجعل له من قبل سميا .. هل طلبت شيئاً من هذا ؟

خذ .. معه .. وآتيناه الحكم صبيا .. هل كنت تدري أن هـــذا الغلام سنؤتيه النبوة صبياً ؟!.

ثم خذ .. معه .. ما هو فوق ما تتمنى .. ووراء ما تتصور .. وحنانا من لدنا .. هل خطر على بالك .. ذلك ؟!.

وخذ .. معه .. من لدُنا .. كذلك .. وزكاة .. وكان تقيا .. فهل طلبت أن نهب للغلام زكاة من لدنا .. وتقوى من لدنا ؟!.

ثم خذ الغلام ومعه مسك الختام .. وسلام عليه يوم ولد .. ويوم يموت .. ويوم يبعث حيا .. هل طلبت منا هذا .. أو حـــتى خطر على قلبك شيء من هذا ؟!.

يا زكريا .. إنما أنت بَشر .. وما طلبته هو أقصى ما يتصور البشر .

وإنما نحن الله .. نعلم ما لا تعلمون .. ونفعل ما نشاء ..

ولقد أردنا .. عبدنا يحيى .. كما شئنا .. نحن .. لا كما شئتَ أنت ..

ليكون يحيى .. آية .. « من لدنا » ..

لكَ .. وللناس ..

ألم تقل : « رب اجعل لي آية » ؟!.

فها هو .. يحيى .. آية !.

يحيى ... كما يراه ... ابن العربي ؟!...

كما هو الأسلوب ...

في « حياة داوود » و « حيـــاة سليمان » و « حياة أيوب » .. نثبت في « حياة يحيى » ما قاله ابن العربي .. في كتابه « فصوص الحكم » عن يحيى .. عليه السلام ..

مع التنبيه .. أن ما يذهب اليه الإمام الأكبر .. إنما هو رأيه.. فمن شاء أن يستضيىء به فقد فاز .. ومن شاء أن يُعرض عنه فلا تثريب عليه .. لأن علم الأذواق لا يدركه إلا القليل ..

فص حكمة جلالية في كلمة يحياوية

قال الشارح :

« إنما خصت الكلمة اليحيوية بالحكمة الجلالية .

« لأن الغالب على حالة أحكام الجلال ، من القبض والخشية والحزن والبكاء والجد والجهد في العمل ، والهيبة والرقة والخشوع في القلب .

« فمشربه من حضرة ذي الجلال فكان دائماً تحت القهر .

« وقد خدت الدموع في خده أخاديد من كثرة البكاء .

« وكان لا يضحك إلا ما شاء الله .

« وكل ذلك من مقتضيات حضرة الجلال والقيام بحقها .

« ولذلك قُتِل في سبيل الله .

« وقُتِل في دمه سبعون ألفاً حتى سكن دمه من فورانه » .

قال الامام الأكبر :

« هـــذه حكمة الأولية في الأسماء ، فان الله سماه يحيى ، أي يحيى به ذكر زكريا » .

« الأولية : صفة لشيء يكون بها أولاً ، والأولية في الأسماء أن يكون أول اسم سمي به لقوله » :

« (— لم نجعل له من قبل سميا —) » .

« وقد جمع الله فيه بين العلمية والوصفية على خلاف العادة ، لأنه لما طلب زكريا من ربه وارثاً يرث النبوة والعلم منه ويحيي به ذكره ، أجاب دعاءه بخرق العادة ، إذ وهبه بين شيخ وعجوز عاقر .

« وسماه يحيى جمعاً بين الوضع والمفهوم ، وهو ان يحيي به ذكره من باب الإشارة ولسانها ، تتمة في تسميته لخرق العادة بوجوده لأحد قبله بين التسمية والإشارة الى الوصف .

« عناية من الله بزكريا ، اختصاصاً إلهياً وتشريفاً ، كما ذكر في قوله » :

« فجمع بين حصول الصفة التي فيمن غبر » .

« أي مضى » .

« ممن ترك ولدا يحيي ذكره وبين اسمه بذلك فسماه يحيى ، فكان اسمه يحيى كالعلم الذوقي .

« فان آدم عليه السلام حيى ذكره بشيت .

« ونوحا حيى ذكره بسام .

« وكذلك الانبياء عليهم السلام .

« ولكن ما جمع الله لأحد قبل يحيى بين الاسم العلم منه » .

« أي صادراً من عنده ومن أمره في قوله – نبشرك بغلام اسمه يحيى –

« وبين الصفة إلا لزكريا عناية منه إذ قال – هب لي من لدنك وليا –

« فقدم الحق على ذكر ولده ، كما قدمت آسية ذكر الجار على الدار في قولها – عندك بيتاً في الجنة –

« فاكرمه الله بأن قضى حاجته وسماه بصفته حتى يكون اسمه تذكارا لما طلب منه نبيه زكريا .

« لأنه آثر بقاء ذكر الله في عقبه ، إذا الولد سر أبيه فقال – يرثني ويرث من آل يعقوب –

« وليس ثم موروث في حق هؤلاء إلا مقاماً ، ذكر الله ، والدعوة اليه » .

« كان زكريا عليه السلام مظهر الرحمة والكمال .

« وله حظ وافر من الجمال والأنس والجلال والقهر والهيبة .

« لكنه قد غلبت على باطنه حالة الدعاء والسؤال والخوف من أولياء السوء .

« والهم من ضيقه ما قام به من ذكر الله والدعوة بعده .

« ولم يكن له وليّ يخلفه ويقوم بأمر النبوة .

« وقد أشرب باطنه حال مريم ، وكونها متبتلة منقطعة إلى الله حصورا .

« وكانت آيته عند البشارة بالولد الصمت .

« والذكر ، والحبسة في اللسان من غير ذكر الله .

« جاء يحيى على صورة باطنه ، من غلبة أحكام الجلال ، على أحكام الجمال .
« محصوراً ، مداوماً على الذكر والخشية ، فإن الولد سر أبيه .
« وقد حكم حاله على حاله ، حتى تحكمت عليه الأعداء بحكم القهر والجلال .
« حتى تحكمت على يحيى عليه السلام » .

ثم يقول الشيخ الاكبر :

« ثم انه تعالى بشره بما قدمه من سلامه عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

« فجاء بصفة الحياة وهي اسمه .

« وأعلمه بسلامه عليه وكلامه صدقه ، فهو مقطوع به .

« وإن كان قول الروح – والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا – أكمل في الاتحاد والاعتقاد وارفع للتأويلات » .

قال الشارح :

« يعني أن الله بشر بما قدمه على اقترانه من سلامه عليه ، ووصفه بالحياة التي هي صورته الذاتية ، واسمه الذي يميزه به عن غيره .

« وأعلمه بنفسه بالسلام عليه فكان وصفه إياه بذلك أكمل من حيث أن كلامه صدق مقطوع به عن الكل من أهل الحجاب والكشف .

« وإن كان قول عيسى عليه السلام – والسلام عليّ – أكمل من حيث الاتحاد ..

« ويدل على كال تمكن عيسى من شهود هذه الأحدية .

« وأما سلام الله على يحيى من حيث أن الله هوية ، لا في مادة يحيى ، من حيث هويته المطلقة ، فهو أتم وأكمل في الاعتقاد بالنسبة إلى شهود أهل الحجاب

« وأما بالنسبة الى شهود أهل الذوق فالاتحاد من قبل الحق من كونه تعالى مسلماً على نفسه في مادة يحيوية ، من حيث كون ربه وكيلاً له في التسليم عليه أتم وأعم .

« ولكن لا يدل على تمكن يحيى من شهود هذه الأحدية .

« إلا أنه أرفع للالتباس الذي عند الجاهل المحجوب » .

ثم يقول الامام الأكبر :

« فان الذي انخرقت فيه العادة في حق عيسى انما هو النطق .

فقد تمكن عقله ، وتكمل في ذلك الزمان الذي أنطقه الله فيه .

« ولا يلزم التمكن من النطق على أي حالة كان الصدق فيا به نطق ، بخلاف المشهود له كيحيى .

« فسلام الحق على يحيى من هذا الوجه أرفع للالتباس الواقع في العناية الالهية ، من سلام عيسى على نفسه .

« وإن كانت قرائن الاحوال تدل على قربه من الله في ذلك وصدقه .

« إذ نطق في معرض الدلالة على براءة أمه في المهد ، فهو أحد الشاهدين .

« والشاهد الآخر هو هز الجذع اليابس ، فسقط رطباً جنيا ، من غير فحل ولا تذكير .

« كما ولدت مريم عيسى من غير فحل ولا ذكر ولا جماع عرفي معتاد .

« ولو قال نبي آيتي ومعجزتي أن ينطق هذا الحائط ، فنطق الحائط وقال في نطقه : تكذب ، ما أنت رسول الله ، لصحت الآية ، وثبت بها أنه رسول الله ، ولم يلتفت الى ما نطق به .

« فلما دخل على هذا الاحتمال » .

« أي عند المحجوب الجاهل » .

« في كلام عيسى باشارة أمه اليه وهو في المهد ، كان سلام الله على يحيى أرفع من هذا الوجه » .

« يعني بمجرد نطق عيسى بإشارة أمه اليه عند سؤال الأحبار مريم بقولهم – ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيّا – كاف في صحـــة مدعى مريم وبراءتها ، مما توهمت اليهود في حقها .

« إذ برأها الله مما قالوا بنطقه في المهد .

« لكن تطرق فيما نطق به مثل ما مثل به عند الجاهل في نطق الحائط ، كان سلام الله على يحيى أرفع من هذا الوجه » .

يقول الامام الأكبر :

« فموضع الدلالة أنه عبد الله ، من أجل ما قيل فيه انه ابن الله .

« وفرغت الدلالة بمجرد النطق ، وأنه عبد الله ، عند الطائفة الأخرى ، القائلة بالنبوة .

« وبقي ما زاد في حكم الاحتمال في النظر العقلي ، حتى ظهر في المستقبل صدقه في جميع ما أخبر به في المهد، فتحقق ما أشرنا اليه » .

يقول القاشاني :

« فرغت الدلالة أي تمت وصحت .

« والمراد بالنظر العقلي النظر العرفي العادي الحجابي .

« لأن العقلي الصريح المجرد لما شاهد صحة بعض كلامه في قوله – إني عبد الله – حـــكم بصحة جميع ما نطق به ، لأن قرائن الأحوال عند أهل الذوق والعقل الخالص عن الوهم والعادة دلائل شاهدة كيف نطق .

« ومجرد نطقه دليل على براءة أمه ، صادق في شهادته .

« فمحال أنه لا يدل على صدق نفسه .

« ولو تطرق احتمال الكذب في البعض لتطرق في سائر الأبعاض ، صدقه في موضع الدلالة يقتضي صدقه في البواقي .

« وكذلك سقوط الرطب الجني من الجذع اليابس بإخباره في بطن أمه ، قبل تسليمه على نفسه ، يحكم بكونه روحاً مقدساً مؤيداً بالنور .

« فكيف لا يصدق في تسليمه على نفسه ؟

« وكفى بكلامه في المهد مع كونه كلاماً منتظماً ، مفتتحه دعوى عبودية الله .

« ومختتمه تسليمه على نفسه من قبل الله .

« دليلاً على صدقه بإخباراته وارتفاع اللبس عنها عند العقول السليمة .

« فظهر أنه ليس عند أهل التحقيق لبس واحتمال .

« وأما العقول المحجوبة المشوبة بالوهم فلا اعتبار بنظرها » .

* * *

فرغنا من اثبات ما قاله ابن العربي .. وما قاله القاشاني شرحا عليه ..

ومرة أخرى أقول ان الهدف من اثبات ذلك .. هو فتح آفاق جديدة .. في الفهم والذوق .. لمن شاء أن يستزيد .. وقل رب زدني علماً ..

أما من يفزع من تلك الآفاق .. فحسبه ان يقف عند الظاهر .. ففيه ما يكفيه !..

زكريا ... كما يراه ... ابن العربي؟!...

فص حكمة مالكية
في كلمة زكرياوية

قال القاشاني :

« انما خصت الكلمة الزكرياوية بالحكمة المالكية ، لأن الغالب على حالة حكم الإسم المالك ، والمليك هو الشديد .

« وقد خصه الله بالشدة وأيده بالقوة ، حتى سرت في همته وتوجهه وأثرت إجابة رعاية .

« وأثرت في زوجته حيث قال تعالى — وأصلحنا له زوجه —

« ولولا إمداد الله إياه بقوة ربانية وتخصيصه بمعونة ملكوتية ما صلحت زوجه بعد الكبر وسن اليأس مع كونها عاقراً في شبابها للحمل والولادة .

« وما ظهرت إلا بالتصرفات الإلهية المالكية .

« ولهذا كان يشدد على نفسه في الاجتهاد .

« وظهرت عليه آثار الشدة والقهر حتى نشر بالمنشار ، وقدّ نصفين .

« فلم يدع الله في رفعه مــــع كونه مستجاب الدعوة ، لكن مشهده شدة المالك ، وشهود أحدية المتصرف والمتصرف فيه .

« ولما شاهد من عينه الثابتة أن تجلي القهر والشدة محيط به فاستسلم وسلم وجهه للمتصرف .

« وحيث كان تحت قهر المالك وشدته سهل عليه تحمل الشدة لاتصافه بها .

« فظهرت رحمة اللطف الكامن في ضمن القهر الظاهر في صورة الظلم .

« فانعكست من نفسه أنوار القهر ونيرانه على أعدائه فقهرهم ودمرهم قهراً تاماً ، وتغمده الله برحمته » .

قال الشيخ الاكبر :

« اعلم أن رحمة الله وسعت كل شيء وجوداً وحكماً .

« وأن وجود الغضب من رحمة الله بالغضب ، فسبقت رحمته غضبه .

« أي سبقت نسبة الرحمة اليه نسبة الغضب اليه » .

قال الشارح :

« لأن الرحمة له ذاتية ، لكونه جواداً بالذات ، فياضاً بالجود من خزانة الرحمة .

« والجود والوجود أول فيض الرحمة العامة التي وسعت كل شيء .

« وأما الغضب فليس بذاتي للحق ، بل هو حكم عدمي ناشيء من عدم قابلية بعض الأشياء لكمال ظهور آثار الوجود وأحكامه فيه ، فاقتضى عدم قابليته الرحمة عدم ظهور حكم الرحمة دنيا وآخرة .

« فسمي عدم فيضان الرحمة عليه لعدم قابليته غضباً بالنسبة اليه من قبل الراحم ، وشقاوة وشراً وأمثال هذه الألفاظ .

« فظهر أن نسبة الرحمة اليه سبقت نسبة الغضب اليه ، وما هي إلا عدم قابلية المحل لكمال الرحمة .

« ولكمال شهود النبي عليه الصلاة والسلام حقيقة الأمرين ، أومأ اليهما بقوله « اللهم إن الخير كله بيديك ، والشر ليس اليك » .

« لأنه أمر عدمي لا يحتاج إلى الفاعل وسببه عدم قابلية المحل للخير .

« والشر هو العدم المحض فلا حقيقة له حتى تتعلق به الرحمة[1] .

« بل حيث لم توجد الرحمة الفائضة بالتجلي الفائض على بعض الأعيان لم يكن لها قابلية نور الوجود إلا نسباً عدمية أو أعداماً نسبية ، كالجهد والفقر والمرض والألم والموت وأمثالها سميت غضباً .

« وذلك لكمال سعة الرحمة وعمومهـا كل شيء ، وسعت هذه الأعدام بالنسبية أو النسب العدمية لشائبة الوجود فيها ، فصار الغضب مرحوماً وإلا لم يوجد » .

ثم يصعد الامام الأكبر عاليا ويقول :

« ولما كان لكل عين وجود يطلبه من الله ، لذلك عمت رحمته كل عين .

« فان برحمته التي رحمه بها قبل رغبته في وجود عينه فأوجدها .

« فلذلك قلنا ان رحمة الله وسعت كل شيء وجودا وحكما » .

« لذلك .. إشارة إلى الطلب ، وعمت جواب لمـا .. وقوله فإنه تعليل لعموم الرحمة ، وقوله قبل رغبته : خبر ان ، أي فإنه الله برحمته التي رحم الشيء بها سابق رغبته في وجود عينه أي طلبه ، فأوجدها أي الرغبة أولاً وهي الاستعداد .. فلذلك أي فلسبق الرحمة الاستعداد ، قلنا وسعت رحمته كل شيء وجوداً وحكماً .

---

(١) مذهب جميل حقاً .. ان الله كل ما يصدر عنه سبحانه خير .. وإنما هناك قوالب تتلقى ذلك الخير .. وقوالب مغلقة لا تقبل ذلك .. وإنه لمفتاح جميل يفسر للكثيرين ما يحارون فيه من تلك القضية .. قضية الشر والخير !..

« حيث جعله برحمته الذاتية فطلبت مشيئته الوجود فأوجدوه » أي ولما كانت الأعيان الثابتة في ثبوتها العلمي معدومة العين في نفسها ، طالبة للوجود من الله ، راغبة في وجودها العيني ، عمت رحمته الذاتية كل عين ، بأن أعطتها قابلية التجلي الوجودي .

« فتلك القابلية والاستعداد الذاتي لقبول رغبتها في الوجود العيني .

« وأول أثر للرحمة الذاتية فيهـــا تلك الصلاحية لقبول الوجود المسماة استعـــداداً .

« فإنه تعالى رحمها قبل استعدادها للوجود بوجود الاستعداد من الفيض الأقدس ، أي التجلي الذاتي العيني الواقع في الغيب .

« وذلك الاستعداد رحمة الله عليها إذ لا وجود لهـــا تقدم بذلك الطلب الاستعدادي .

« وسؤال الرحمة في الغيب أوجدها في الأعيان بالوجود العيني فذلك رحمته عليهـــا وجوداً ، وهو معنى قوله – وآتاكم من كل ما سألتموه – أي بلسان الاستعداد في الغيب » .

ثم يصعد الامام الأكبر .. الى افق أعلى .. ويقول :

« والأسماء الالهية من الأشياء .

« وهي ترجع إلى عين واحدة .

« فأول ما وسعته رحمته أزلا شيئيته تلك العين الموجدة للرحمة بالرحمة .

« فأول شيء وسعته الرحمة نفسها ، ثم الشيئية المشار اليها .

« ثم شيئية كل موجود يوجد الى ما لا يتناهى دنيا وآخرة ، عرضا وجوهرا ، مركبا وبسيطا » .

قال القاشاني :

« لما تبين أن رحمته وسعت كل شيء قال : ان الأسماء الإلهية من الأشياء فيجب أن تكون مرحومة .

« فإن حقائقها التي تتميز بها عن الذات ، وينفصل كل منها عن الآخر ، أشياء غير الذات .

« فلها أعيان ترجع إلى عين واحدة ، هي حقيقة اسم الرحمن .

« فأول ما وسعته رحمة الله شيئيته تلك العين ، وتلك العين حقيقة الرحمة الانتشارية التي تفيض منهـــا الرحمة الأسمائية ، فتلك العين مرحومة بالرحمة ، فأول شيء وسعته الرحمة الذاتية التي جعلتها شيئاً ، راحمة بالرحمة الأسمائية كل شيء ، فهي الرحمة بالرحمة .

« فأول شيء وسعته الرحمة الذاتية تنفس الرحمة الأسمائية الشيئية المشار اليها ، أي العين الواحدة التي هي جميع الأعياء وأصلها .

« فعمت الرحمة المتعلقة بهذه العين جميع الأعيان الثابتة في العـــلم الأزلي ، وهي الشيئيات الثابتة في الشيئية الأولى .

« فتفصلت العين الواحدة إلى الأعيان الكونية ، وهو معنى قوله شيئية كل موجود ، أي عينه ، لا وجـــوده على الترتيب إلى ما لا يتناهى وجودها في الخارج .

« فظهرت النسب الإلهية في النسبة الأولى الرحمانية ، وهي الأسماء الإلهية في ضمن اسم الرحمن ، وليست إلا نسب الذات إلى الأعيان ، فتحققت حقائق الأسماء ، فذهب كل اسم بحظ من الرحمة حتى تحققت حقيقته .

« ثم أثرت الأسماء الإلهية في إيجاد أعيان الأكوان ، فتنبسط آثار الرحمة في عرضة الإمكان .

« فتوجد الأعيان الممكنة على الترتيب ، وأحوالها جواهر بسيطة مركبة ، واعراضاً في الدنيا والآخرة .

« فوجود الرحمة الغيبية في الحقائق الإلهية الأعيان العلمية ، التي هي تعينات وشئون في الوجود الواحد الحق ، إنما هو من الرحمة الذاتية الجودية التي هي عين الذات ، ووجوده الأشياء أي كونها حقائقها بالرحمة الرحمانية الإلهية الأسمائية والله أعلم » .

« ولا يعتبر فيها حصول غرض ولا ملاءمة طبع ، بل الملائم وغير الملائم كله وسعته الرحمة الالهية وجوداً .

« وقد ذكرنا في الفتوحات المكية أن الأثر لا يكون إلا للمعدوم لا الموجود وإن كان للموجود فبحكم المعدوم .

« وهو علم غريب ، ومسألة نادرة لا يعلم تحقيقها إلا أصحاب الاوهام ، فذلك بالذوق عندهم .

« وأما من لا يؤثر الوهم فيه فهو بعيد عن هذه المسألة » .

« أي لا يعتبر في تعلق الرحمة بالأشياء حصول غرض ولا ملاءمة طبع ، فإن الرحمة وسعت كل شيء فأوجدته سواء كان ملائماً له أو غير ملائم .

« ثم ذكر أن الأعيان الثابتة المعدومة في أنفسها هي المؤثرة في الوجود الواحد الحق المنبسط عليها بالتعيين والتقييد والتكييف والتسمية بحسب خصوصياتها حتى تظهر الأسماء الإلهية والنسب الزمانية .

« ثم النسب الإلهية هي من حيث خصوصياتها معدومة الأعيان لا تحقق لها .

« فإن حقيقتها لا تعقل إلا بين أمرين ، والموجود ههنا أحد طرفيها وهو الحق .

« ولا مؤثر في وجود الأشياء إلا هي .

« فالآثار كلها إن كانت من الأسماء الإلهية فهي من النسب العدمية ، وإن كانت من الذات المعينة بها فمن الوجود ، باعتبار هذه النسب العدمية الأعيان

وحكم تعيناتها واقتضاء تلك التعينات المخصصة ، وإن كانت من الأعيان الثابتة في الوجود الحق فالأثر للمعدوم والعين وكذلك في الأكوان .

« فإن كل أثر يظهر من موجود فإنه لا ينسب إلى وجوده من حيث هو وجود بل الى عينه العدمية أو وجوده المتعين بتلك النسب العدمية .

« وهذا علم غريب في غاية الغرابة ومسألة نادرة في غاية الندرة .

« إذ لا يعقل أن العدم يؤثر في الوجود ، أي المعدوم من حيث كونه معدوماً يؤثر في الشيء المعلوم فيوجده .

« ولهذا قال : لا يعلم تحقيقها إلا أصحاب الأوهام .

« أي الذين يؤثرون الأشياء بالوهم فيوجدونها .

« فإنهم يعلمون ذلك علم ذوق ، لا من يؤثر الوهم فيه ، أي من لا يؤثر الوهم الموجود فيه في الأشياء ، أو من يتأثر من الوهم ، فهو بعيد من ذوق هذه المسألة .

« وتحقيق ذلك أن الوجود المضاف إلى الأشياء أمر خيالي ، لا حقيقة له في عينه ، كما مر في مسألة الظل .

« وليس الوجود الحقيقي إلا حقيقة الحق .

« فالوجود المعين الذي نسميه الوجود الإضافي ، وهو المقيد بتعيين ما هو ذلك الوجود القائم بنفسه أمر عدمي ، يمنعه عن كماله الإطلاقي ، ويحصره في القيد الخلقي ، فنسميه وجوداً خاصاً ، وليس إلا ظهور الوجود الحق في صورة أمر عدمي إمكاني .

« فالظهور هو نفس تقيده بالأمر العدمي الإمكاني الذي يحكم عليه بالحدوث .

« ولا حدوث في الحقيقة إلا التعين الذي ينقص الوجود عن كماله والحقيقة بحالها على قدمها الأزلي .

« فهذا سر تأثير المعدوم ، ولا تأثير في الحقيقة إلا شوب العدم والحدوث بالوجود الحق ، والعدم في الظل الخيالي :

« فرحمة الله في الاكوان سارية .

وفي الذوات وفي الاعيان جارية .

مكانة الرحمة المثلى إذا علمت .

من الشهود مع الأفكار عالية » .

« المكانة المرتبة الرفيعة والمـــنزلة العلية ، والمثلى : تأنيث الأمثل بمعنى الأفضل ، قال تعالى — ويذهبا بطريقتكم المثلى — أي منزلة الرحمة التي هي أفضل أنواعها، إذا علمت من طريق الشهود كانت تعلو الأفكار، أي أجلّ وأعلى من أن تعلم بطريق الفكر » .

« فكل من ذكرته الرحمة فقد سعد .

« وما ثم إلا ما ذكرته الرحمة .

« وذكر الرحمة الأشياء عين ايجادها اياها .

« فكل موجود مرحوم .

« ولا تحتجب يا ولي عن ادراك ما قلناه بما تراه من أصحاب البلاء .

« وما تؤمن به من آلام الأخرة التي لا تفتر عمن قامت به .

« واعلم أولا أن الرحمة انما هي في الايجاد عامة .

« فبالرحمة بالالام أوجد الالام .

« ثم ان الرحمة لها أثر بوجهين، أثر بالذات وهو ايجادها كل عين موجودة .

« ولا تنظر الى غرض ولا الى عـــدم غرض ، ولا الى ملايم ولا الى غير ملايم .

« فانها ناظرة في عين كل موجود قبل وجوده ، بل تنظره في عين ثبوته .

« ولهذا رأيت الحق المخلوق في الاعتقادات عينا ثابتة في العيون الثابتة ، فرحمته بنفسها بالايجاد .

« ولذلك قلنا : ان الحق المخلوق في الاعتقادات أول شيء مرحوم بعد رحمتها بنفسها في تعلقها بإيجاد المرحومين .

« ولها أثر آخر بالسؤال .

« فيسأل المحجوبون الحق أن يرحمهم في اعتقادهم » .

« وأهل الكشف ليسألون رحمة الله أن تقوم بهم ، فيسألونها باسم الله فيقولون : يا ألله ارحمنا .

« ولا يرحمهم إلا قيام الرحمة بهم فلها الحكم .

« لأن الحكم انما هو في الحقيقة للمعنى القائم بالمحل » .

قال القاشاني :

« أثر الرحمة بالذات : إيجادها كل عين ثابتة على العموم .

« فرحمة الحق المخلوق في الاعتقادات بتبعية رحمتها أعيان المعتقدين ، فإنه عين ثابتة في أعيان المعتقدين الثابتة ، فرحمت أولاً بنفسها في تعلقها بإيجاد المرحومين من الأعيان فتعينت بها وظهرت في مظاهرها وانتشرت ، فكان في ضمن تعلقها بإيجاد المرحومين رحمة إيجاد الحق المخلوق فكان أول مرحوم المتعلقة بالأعيان .

« لأن الحق المعتقد حال من أحوال أعيان المعتقدين فبنفس تعلقها بالأعيان تعلقت به .

« وأما أثر الرحمة بالسؤال ، فهو أن يترتب على سؤال الطالبين ، وهم : إما محجوبون ، وإما أهل الكشف ، فالمحجوبون : يسألون الحق الذي هو ربهم في

اعتقادهم أن يرحمهم ، فهم من يرحمون من الراحم المتجلي في صور معتقداتهم بحسب ما يعتقدونه ، فإن تعين الرحمة الوجودية في علم المعتقدين واعتقاداتهم بعد تعينها في علم الله ، فتعلق الرحمة المطلوبة بهم بحسب تعينهـــا في أعيانها متأخر الرتبة عن حقيقة الرحمة متقدم في علم الله على المرحوم بحسب اعتقاده .

« وأما أهل الكشف : فيسألون رحمة الله أن تقوم بهم باسم الله فلهـــا الحكم عليهم ، لأن القائم بالمحل يحكم على القابل بمقتضى حقيقته ، فلا يرحمهم إلا قيام الرحمة بهم فيجعلهم راحمين ، وهو منتهى قوله » .

« فهو الراحم على الحقيقة » .

« يعني المحل القائم بالرحمة » .

« فلا يرحم الله عباده المعتنى بهم إلا بالرحمة » .

« ليكونوا موصوفين بصفته » .

« فاذا قامت بهم الرحمة وجدوا حكمها ذوقاً .

« فمن ذكرته الرحمة فقد رحم .

« واسم الفاعل هو الرحيم والراحم .

« والحكم لا يتصف بالخلق لأنه أمر توجبه المعاني لذواتها » .

« كما ذكر في الفص الأول من حكم الحياة والعلم على الحي والعالم » .

« فالأحوال لا موجودة ولا معدومة ، إذ لا عين لها في الوجود لأنها نسب ، ولا معدومة في الحكم لأن الذي قام به العلم يسمى عالماً وهو الحال ، فعالم ذات موصوفة بالعلم ما هو عين الذات ولا عين العلم .

« وما ثم إلا علم وذات ، قام بها هذا العلم .

« فكونه عالماً حال لهذه الذات باتصافها بهذا المعنى .

« فحدثت نسبة العلم اليه فهو المسمى عالما .

« والرحمة على الحقيقة نسبة من الراحم وهي الموجبة للحكم فهي الراحمة » .

« أي الجاعلة للذي نسب اليه راحما » .

« والذي أوجدها في المرحوم ما أوجدها ليرحمه بها » .

« أي ليكون بها مرحوماً » .

« وإنما اوجدها ليرحم بها من قامت به » .

« فيكون راحما » .

« وهو سبحانه ليس بمحل للحوادث ، فليس بمحل لايجاد الرحمة وهو الراحم .

« ولا يكون الراحم راحما إلا بقيام الرحمة به .

« فثبت أنه عين الرحمة .

« ومن لم يذق هذا الأمر ، ولا كان له فيه قدم ما اجترأ أن يقول : انه عين الرحمة أو عين الصفة .

« فقال : ما هو عين الصفه ولا غيرها ، فصفات الحق عنده لا هي هو ولا هي غيره ، لأنه يقدر على نفيها ، ولا يقدر أن يجعلها عينه ، فعدل الى هذه العبارة » .

« وهو الأشعري » .

« وهي عبارة حسنة وغيرها » .

« أي غير هذه العبارة » .

« أحق بالأمر منها » .

« أي ما هو في نفس الأمر من هذه العبارة » .

« وأرفع للاشكال وهو القول بنفي أعيان الصفات وجودا قائما بذات الأوصاف .

« وإنما هي نسب وإضافات بين الموصوف بها وبين أعيانها المعقولة » .

« وهو قول أكثر العلماء والمعتزلة » .

« وإن كانت الرحمة جامعة فانها بالنسبة الى كل اسم إلهي مختلفة » .

« كالرحمة بالرزق والعلم والحفظ وأمثال ذلك من معاني الأسماء الإلهية » .

« فلهذا يسأل سبحانه أن يرحم بكل اسم إلهي ، فرحمة الله والكناية » .

« أي الضمير في قوله — ورحمتي وسعت كل شيء — » .

« هي التي وسعت كل شيء .

« ثم لها شعب كثيرة ، تتعدد بتعدد الأسماء الالهية .

« فما تعم بالنسبة إلى ذلك الاسم الخاص الالهي في قول السائل : يا رب ارحم .

« وغير ذلك من الأسماء حتى المنتقم له ان يقول : يا منتقم ارحمني .

« وذلك لأن هذه الأسماء تدل على الذات المسماة ، وتدل بحقائقها على معان مختلفة .

« فيدعوه بها في الرحمة من حيث دلالتها على الذات المسماة بذلك الاسم لا غير » .

« أي الله مطلقاً » .

« لا بما مدلول ذلك الاسم الذي ينفصل به عن غيره ويتميز فانه لا يتميز عن غيره ، وهو عنده دليل الذات » .

« أي ذات الله ، من حيث هي لا باعتبار المعنى الخاص المميز » .

« وإنما يتميز به بنفسه عن غيره لذاته » .

« أي لخصوصية ذات الإسم الخاص » .

« إذ المصطلح عليه بأي لفظ كان حقيقة متميزة بذاتها عن غيرها .

« وإن كان الكل قد سيق ليدل على عين واحدة مسماه ، فلا خلاف في انه لكل اسم حكم ليس للاخر .

« فذلك أيضاً ينبغي أن يعتبر كما يعتبر دلالتها على الذات المسماة .

« ولهذا قال أبو القاسم بن قسي في الأسماء الالهية :

« ان كل اسم على انفراده مسمى بجميع الأسماء الالهية كلها ، اذا قدمته في الذكر نعته بجميع الأسماء ، وذلك لدلالتها على عين واحدة وإن تكثرت الأسماء عليها واختلفت حقائقها أي حقائق تلك الأسماء .

« ثم ان الرحمة تنال عن طريقين :

« طريق الوجوب، وهو قوله — فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة — وما قيدهم به من الصفات العلمية والعملية .

« والطريق الآخر الذي تنال به الرحمة طريق الامتنان الالهي الذي لا يقترن به عمل ، وهو قوله — ورحمتي وسعت كل شيء —

« ومنه قيل — ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر —

« ومنها قوله — « اعمل ما شئت فقد غفرت لك » .

« فاعلم ذلك » .

« رحمة الامتنان ذاتية تنال الأشياء كلها ، لأنها ليست في مقابلة عمل .

« فكل ما تناولته الشيئية تناله هذه الرحمة .

« وبهذه الرحمة استظهار الأبالسة والفراعنة والكفرة والسحرة .

« والله المنان » وعليه التكلان » .

* * *

تم إثبات ما قاله الشيخ الأكبر .. وما ذهب اليه القاشاني شرحاً عليه ..

وها هنا يثور سؤال خطير :

ما علاقة زكريا بهذا الفصل من أوله إلى آخره .. فقد كان كله يدور حول « الرحمة » وأسرارها .. فما شأن زكريا بذلك ؟!.

وأقول : علاقة زكريا بذلك هو قوله تعالى : « ذكر رحمت ربك عبده زكريا » ..

أي .. هذا ذكر رحمت ربك ..

هذا مثال من رحمتنا .. آتيناه عبدنا زكريا ..

فمن قوله « رحمت ربك » .. انفجر ما انفجر .. مما قاله الشيخ الأكبر .

تفصيلا للرحمة الالهية وأسرارها ..

ففي زكريا .. تجليات .. رحمة الوجوب .. ورحمة الامتنان .. التي أشار اليها الشيخ الأكبر ..

أما ظهور رحمة الوجوب فيه .. فهو نبي كريم .. على أخلاق الأنبياء وأحوالهم .. فاستوجب رحمة العلم والعمل بأوامر الله ..

وأما ظهور رحمه الامتنان فيه .. فأبرزها .. أن وهب له من لدنه وليا ..

وهب له يحيى .. وهذه رحمة الامتنان .. في أبرز مظاهرها ..

فكأنه يراد أن يقال :

« ذكر رحمت ربك عبده زكريا » ..

هذا مثال جامع .. في عبدنا زكريا .. لرحمتنا ..

يجمع بين نوعي رحمتنا ..

رحمة الوجوب .. التي هي جزاء العلم بنا .. والعمل بأمرنا ..

ورحمة الامتنان .. التي نمن بها .. على من نشاء من عبادنا ..

فهو مثال جامع .. لرحمتنا .. وجوباً .. وامتناناً !.

وأخيراً .. أقول لك : هل فهمت شيئاً ممـــا قاله الشيخ الأكبر .. وما قاله الشارح ؟!

ان كنت قد فهمت .. فنعم العبد أنت ..

وإن كنت لم تفهم .. فاسأل الله .. أن تفهم !..

يحيى ... مصدقا ... بكلمة من الله ؟!...

ميثـــاق ...

فرضه الله .. على جميع النبيين ..
أن يؤمن بعضهم ببعض ..
ويُصدّق بعضهم بعضاً .
لأنهم جميعاً .. أرسلوا إلى الناس .. بكلمة واحدة .. « لا إله إلا الله » ..
من إله واحد ..
« أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي .
« لا إله إلا الله » !.

أما ذلك الميثاق .. ففي قوله تعالى :
« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين .
« لما آتيتكم من كتاب وحكمة .
« ثم جاءكم رسول مُصدّق لما معكم .
« لتؤمننّ به ولتنصرنّه .
« قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْري .
« قالوا أقرَرنا .
« قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

فالناموس الذي لا تبديل له .. أن كل نبي .. يؤمن بكل نبي سيكون بعده ..

لأنهم سلسلة واحدة ..

وكل نبي حلقة في هذه السلسلة ..

ولا تكون الحلقة حلقة في السلسلة إلا إذا كانت تمسك بأحد طرفيها بما قبلها من حلقات .. وبالطرف الآخر بما بعدها من حلقات ..

أو هم كالبنيان الواحد .. يشد بعضه بعضا ..

فلما كان رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. هو النبي الخاتم .. فلا نبي بعده ..

كان الأمر الصادر اليه .. أن يؤمن بجميع الأنبياء من قبله .. حيث لا أنبياء بعده .. ليؤمن بهم ..

« قُل .

« آمنّا بالله .

« وما أُنزل علينا .

« وما أُنزل على ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أتي موسى وعيسى .

« والنبيّون من ربهم .

« لا نفرّق بين أحد منهم .

« ونحن له مسلمون » [١].

ففي قوله : «والنبيّون من ربهم» إشارة إلى جميع الأنبياء .. بلا استثناء ..

وفي قوله « لا نفرّق بين أحدٍ منهم » إشارة إلى فرضية الإيمان بالجميع .. وتحريم الإيمان ببعض دون البعض .. بالنسبة الينا ..

ومن هـــذا الناموس .. ناموس حتمية إيمان .. كل نبي .. بكل نبي .. ندخل الى موقف يحيى النبي .. من عيسى النبي ..

قال تعالى :

« فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب .

« أن الله يبشرك .

« بيحيى مصدّقاً .

« بكلمة من الله .

« وسيّداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحين » .

بيحيى .. مُصدّقاً ؟!.

نفس الناموس .. ونفس الأمر الصادر إلى كل نبي .. أن يُصدّق بكل نبي ..

بكلمة .. من الله ؟!.

بالمسيح عيسى بن مريم .. المخلوق بكلمة من الله .. كن فيكون ..

« إذ قالت الملائكة يا مريم .

« ان الله يبشرك بكلمة منه .

« اسمه المسيح عيسى ابن مريم .

« وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين » .

وكما أمر يحيى أن يُصدق بعيسى .. أمر عيسى أن يُصدق بيحيى ..

وكان أمراً جميلاً ورائعاً .. أن يُصدّق كل منهما صاحبه ..

في زمان واحد .. وشعب واحد .. ورسالة واحدة ..

فكان أمرهما نموذجاً فريداً .. في تاريخ الأنبياء ..

وُلِدا في وقت واحـــد .. وإن تقدم مولد يحيى بخمسه أشهر .. فليس هذا بفارق ..

وبدأ يحيى يهتف مبشراً بالمسيح .. في نفس الوقت هتف المسيـــح بنبوة يحيى ..

كأنهما نبي واحد .. في شخصين اثنين ..

مناظر رائعة .. وأخلاق عليا .. لا تكون إلا من نبي نحو نبي !.

ها هو يحيى يبعث من يسأل عن المسيح :

« أما يوحنا فلما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه .

« وقال له : أنت هو الآتي أم ننتظر آخر ؟

« فأجاب يسوع وقال لهما : اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران .

« العُمي يبصرون والعُرج يمشون والبرص يطهرون والصُّم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون .

« وطوبى لمن لا يعثر فيّ » !.

ان يحيى يسأل : أنت هو الآتي ؟!.

أنت هو المسيح الآتي ؟!.

لـــماذا هذا السؤال ؟!.

ليُصدّق به .. كما بَشّر به !.

وبينما يحيى يفرح ويستبشر بظهور المسيح ..

فإن المسيح يبادله نفس الشعور !.

« وبينما ذهب هذان ابتدأ يسوع يقول للجموع عن يوحنا : ماذا خرجتم الى البرية لتنظروا ؟.

« اقصبة تحركها الريح ؟.

« لكن ماذا خرجتم لتنظروا ؟.

« أإنساناً لابساً ثياباً ناعمة ؟.

« هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك .

« لكن ماذا خرجتم لتنظروا ؟.

« أنبياً ؟ .

« نعم اقول لكم وافضل من نبي .

« فان هذا هو الذي كتب عنه: ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيىء طريقك قدامك .

« الحق اقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » !.

نعم .. أقول لكم .. وأفضل من نبي ؟!.

اعتراف بنبوة يحيى .. ثم شهادة بأنه من عظماء الأنبياء ..

ثم شهادة أخرى بأنه أفضل ما ولدت النساء في عصره .. « لم يقم .. بين المولودين .. من النساء .. أعظم من يوحنا » !.

وهذا من المسيح .. إيمان بيحيى .. وتصديق بيحيى .. ونصرٌ ليحيى .. « لتؤمننّ به ولتنصرنّه » ؟!.

تماماً .. كالميثاق الذي أخذ على جميع النبيين ..

وليس ثناء يحيى على عيسى .. وعيسى على يحيى .. نوعاً من المجاملة ..

كلا .. فالأنبياء منزهون عن تلك السفاسف .

وإنما هو تقرير حقيقة .. وإعلان صدق ..

والأنبياء إذا نطقوا .. نطقوا حقاً !.

وأخرى .. أبهج وأسمى !.

حين وقف يحيى .. نبياً .. يهتف في الناس ..

« وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر ..

« كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية » .

ان يحيى قد صار .. نبياً .. فماذا كان منه ؟!.

« فجاء الى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا .

« كما هو مكتوب في سِفر أقوال إشعياء النبي القائل : صوت صارخ في البرية ، أعدوا طريق الرب اصنعوا سُبله مستقيمة » !.

إنه ناموس الأنبياء جميعاً ..

دعوة الناس إلى التوبة ..

ألم يهتف أخوه نوح من قبل :

« فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا .

« يرسل السماء عليكم مدرارا » ؟!.

ما من نبي .. إلا دعا الى التوبة ..

ظاهرة مكررة .. ثابتة .. في جميع دعوات السماء ..

انظر إلى إجمال هذا الناموس في قوله تعالى :

« وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » !.

جميعـــاً ؟!.

كل البشر .. مأمورون أن يتوبوا .. إلى الله . على لسان رسلهم !.

وإنما كان ذلك كذلك .. لسبب واحد :

« كل ابن آدم خطّاء .

« وخير الخطائين التوابون » !.

وما دام كل ابن آدم خطاء .. تحتم أن يكون الناموس الموازي .. فتح باب التوبة لهم جميعاً ..

كلما أخطأوا .. تابوا ..

وكلما تابوا .. تاب الله عليهم !.

ومن هنا تحتم أن يدعو كل نبي .. قومه إلى التوبة !.

فإذا هتف يحيى بالتوبة لمغفرة الخطـــايا .. كان هتافه أمراً حتمياً .. وحتماً مقضياً !.

وجلجل يحيى عاليـــاً في البرية : « وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه : يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي .

« فاصنعوا أثمار تليق بالتوبة » .

ثم حذرهم من الاعتماد على الأنساب فقال :

« ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم : لنا ابراهيم أباً .

« لأني اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم » .

ثم جعلت الجماهير تسأل وهو يجيب .. ليوجههم الى التوبة العملية .. وهي استقامة السلوك :

« وسأله الجموع قائلين : فماذا نفعل ؟.

« فأجاب وقال لهم : من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا » .

هذه هي آثار التوبة الصحيحة .. وليست التوبة قولاً باللسان !.

ثم يعلن يحيى .. أنه مجرد مقدمة للمسيح .. ومبشراً به .. فتتلألأ منه .. تلك الكلمات الباقيات الساميات :

« وإذا كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح أجاب يوحنا الجميع قائلا : أنا أعمدكم بماء ، ولكن يأتي من هو أقوى مني ، الذي لست أهلا ان أحُل سيور حذائه ، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار » .

ولكن يأتي من هو أقوى مني ؟!.

الذي لست أهلا أن أحُلّ سُيور حذائه ؟!.

ان يحيى .. وهو ما هو .. من العظمة .. يقرر أن المسيح أقوى منه !.

ثم يتواضع ويتواضع : لست أهلا أن أحُلّ سيور حذائه !.

هذه لغة الأنبياء .. إذا تحدث بعضهم عن بعض !.

« قال رجل .. لرسول الله .. صلى الله عليه وسلم : يا خير البرية .

« فقال صلى الله عليه وسلم : ذاك ابراهيم » !.

انهم .. صلى الله عليهم وسلم .. في أعلى مقامات التواضع !.

وهكذا .. يحيى يُصدّق عيسى ..

وعيسى .. يُصدّق يحيى ..

ويحيى .. يتواضع لعيسى .. « لست أهلا ان أحُل سيور حذائه » !.

وعيسى يتواضع ليحيى .. « وأفضل من نبي » .. « لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا » !.

إلا أنهم إذا صدّق بعضهم بعضا .. وبشّر بعضهم ببعض .. وأثنى بعضهم على بعض .. لا يقولون إلا حقّاً !..

يحيى ... نبيا ...!؟

أعلى . . .

ما خلق الله . . الأنبياء . .

حقائقهم . . أعلى الحقائق . .

وشمائلهم . . أعلى الشمائل . .

تجد ذلك مكنوناً . . في مثل قول . . مَن ليس كمثله شيء :

« لا تخف . . انك أنت الأعلى » .

وإن كان الخطاب إلى أحد الأنبياء . . وهو موسى عليه السلام . .

ولكن الإشارة إلى جميع الأنبياء . .

لأن ما ينتظم نبياً . . ينتظم سائر الأنبياء . .

فإن شئت ما هو أشمل . . فاقرأ :

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . .

« انهم لهم المنصورون .

« وإن جندنا لهم الغالبون » !.

هم الغالبون . . فهم الأعلَوْن . .

« وإن شئت اخرى . . فاقرأ :

« وسلامٌ على المرسلين » !.

فإن اطمأن منك الفؤاد .. فإن لك أن تسأل :

« لماذا كان الانبياء هم أعلى الخلق ؟! .

الجواب .. كانوا كذلك .. لأن حقائقهم هي أعلى الحقائق ..

فلما بُعثوا .. حملوا ما لم يستطع أحدٌ أن يحمل ..

فما منهم من نبي .. إلا إذا قام يدعو إلى الله .. كان الخلق له ضداً ..

فكان النبي في كفة .. وحده ..

والجميع ضده .. في الكفة اليسرى !.

وفي هذا إشارة .. إلى أن حقيقة هذا الواحد .. أثقل في الميزان من جميع الأمة التي تعمل ضده ..

تجد الإشارة الى ذلك في قوله :

« ان ابراهيم كان أمّة » !.

وفي مثل حديث :

« لو وزن ايمان ابي بكر وإيمان الأمة لرجح ايمان أبي بكر » .

— أو كما قال —

وإبراهيم كان أمة .. لأن حقيقته تعدل أمة .. بل أكثر ..

وأبو بكر رجح الأمة .. لأن حقيقته تعدل أمة ..

انها مسألة حقائق ..

فإذا ما نزل أصحاب هذه الحقائق إلى الدنيا .. ظهرت تلك الحقـــائق في صورة تفوقهم الساحق في أمور الإيمان بالله ..

وتأمل في ذلك .. مقامات ابراهيم في حياته ..

ومقامات أبي بكر في حياته ..

تدرك كثيراً عن هذه المسألة ..

فأي نبي .. بُعث في أمة .. كان هو أعلى من تلك الأمة كلهـــا .. أي يعدلها وزيادة ..

ويبدو ذلك واضحاً حين يتحزب جميع أهل الباطل ضده ..

ويقف هو وحده أمامهم ولا يبالي ..

« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه .

« ولا يخشون أحداً إلا الله » ..

لا يخشون أحداً ؟!.

ولو اجتمعت الأمة كلها .. ضده .. فهو أقوى منهم .. ولا يقيم لهم وزناً ..

من هذا المنطلق .. ننطلق إلى يحيى .. نبياً .

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة » ..

ترعرع يحيى في البرية .. محرراً من الخلق .. ما لأحد عنده من نعمة تُجزى .

فهو في أوسع آفاق الحرية ..

ومن هذه البرية .. هتف داعياً إلى الله ..

داعياً إلى الإيمان الصحيح .. البعيد عن ألاعيب رجال الكهنوت ..

وهذا يثير ثائرة الكهان ..

والتف من حوله كثير من الجماهير .. وهذا يثير عليه ثائرة الحاكم .. وكان اسمه هيرودس .

وهيرودس هـــذا .. أو هيرودس الصغير .. تمييزاً له عن أبيه هيرودس الكبير .. الذي سعى ليذبح يحيى .. وعيسى .. طفلا ..

هذا الهيرودس .. كان هو فرعون يحيى ..

ولكل نبي فرعونه ..

ففرعون ابراهيم .. كان النمرود ..

وفرعون موسى .. مشهور معلوم ..

وفرعون .. النبي صلى الله عليه وسلم .. كان أبا جهل .. وهكذا ..

وفرعون .. يحيى .. كان هيرودس ..

والذي أضحك وأبكى .. أن يحيى في أعلى عليين ..

وهيرودس ذاك في أسفل سافلين ..

يحيى .. « .. وزكاة .. وكان تقيا » . أعلى الأخلاق وأزكاها وأرقاها ..

وهيرودس .. كان في الحضيض .. في الدرك الأسفل .. من المجـــون والاستهتار والخلاعة والطغيان ..

وكان الصراع .. وكان النضال والجهاد .. بين النقيضين ..

يحيى .. يحرر الجماهير من عبودية الحاكم .. ويُعبِّدهم لله وحده ..

وهيرودس .. يريدهم له عبيداً ..

منزلة يحيى ترتفع الى السماء .. ومنزلة هيرودس تهوي إلى القـــاع .. في أعين الجماهير ..

وهي القصة الخالدة المكررة .. دائماً .. في تاريخ البشرية ..

ما من نبي دعا قومه إلى الله .. إلا انتفض الحـُـكم القائم ضده ..

ابراهيم .. قاومه الحكم القائم وعلى رأسه النمرود ..

موسى .. قاومه الحكم القائم وعلى رأسه فرعون ..

داوود .. قاومه الحكم القائم وعلى رأسه طالوت ..

وهذا يحيى .. قاومه الحكم القائم وعلى رأسه هيرودس ..

ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً !.

ومن المعلوم أن الأنبياء لا يطلبون حُكماً .. فلماذا يقاومهم أهل الحكم ؟!

منطق الملوك .. أو الحكام .. أن هؤلاء بدعوتهم الجديدة .. يقوضون دعائم حكمهم .. فلا بد من القضاء عليهم !.

وهذا هو المنطق الذي سيطر على هيرودس ..

ان الشعب يسمع إلى يحيى ..

ان الشعب يتجمع حول يحيى ..

ان يحيى يكشف عيوب الحكم .. ويهز أركان السُّلطة ..

إذاً لا بد من القضاء على يحيى ..

ولكن كيف ؟. بأي منطق وبأي حجة ؟!.

ثم هؤلاء رجال الكهنوت .. كيف يسلمون لهـــذا الشاب صولجانهم .. ومُلك كهنوتهم ؟!

انهم يشار اليهم بالبنان ..

ويتيهون كالطواويس في طيالسهم .. أيستسلمون لهذا الشاب الذي يسكن الكهوف ويتمنطق بالجلود ؟!

كلا .. لا بد من القضاء عليه .. حتى لا يزلزل عرش الكهنوت !.

وانطلق يحيى .. « صوت صارخ في البريه » ..

« وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر .

« إذ كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية » .. أي نائب القيصر ..

« وهيرودس رئيس ربع على الجليل » .. وهو ما يشبه نظام المحافظات أي محافظ محافظة الجليل ..

« وفيلبس أخوه رئيس ربع على ايطورية » .. أي محافظ إيطورية ..

« وليسانيوس رئيس ربع على الابليّة » .. أي محافظ الأبلية ..

« في أيام رئيس الكهنة حنّان وقيافا .

« كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية » .

ومن هنا كان الصراع متركزاً بين رئيس الجليل وبين يحيى .. لأن يحيى هتف هتافه في منطقته .. فأحس بالخطر الداهم من صرخته ..

« فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن .

« يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا .

« كما هو مكتوب في سفر أقوال إشعياء النبي القائل ، صوت صارخ في البرية .

« أعدوا طريق الرب ، اصنعوا سبله مستقيمة .

« كل واد يمتلىء ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرُقاً سهلة » .

كل هذه أمور لا يرحب بها هيرودس .. فهو كشأن أي حاكم .. لا يريد إزعاجاً ولا خروجاً على القانون .. ليتفرغ لسهراته الحمراء بعيداً عن تلك الضوضاء !.

وهذا الإزعاج يمكن أن يزدرده هيرودس .. ما دام بعيداً عن شخصه .. أما وقد اجترأ يحيى على ذاته التي لا تمس .. فها هنا يتحتم أن يزأر هيرودس ويضع ليحيى حدوداً لا يتعداها ..

هذا منطق كل حاكم دائماً وأبداً !.

« وبأشياء أُخر كثيرة كان يعظ الشعب ويبشرهم » .

حتى هنا .. يمكن أن يبتلع هيرودس ما يقوله يحيى .. ما دام بعيداً عن ذاته وشخصه الكريم !.

« أما هيرودس رئيس الربع ، فاذ توبّخ منه لسبب هيروديا ، امرأة فليبس أخيه .

« ولسبب جميع الشرور التي كان هيرودس يفعلها .

« زاد هذا أيضا على الجميع أنه حبس يوحنا في السجن » .

ان الحاكم يمكن أن يغفر أن تنتقد الشعب ..

أما أن يمتد النقد إلى علاقاته الشخصية .. وغرامياته النسائية .. وأفعاله الإجرامية .. فها هنا وتعلن الحرب سافرة .. وليكن ما يكون !.

لقد قال يحيى للجماهير : « يا أولاد الأفاعي » ..

فابتلعها هيرودس .. لأنها لا تمس شخصه ..

أما أن يوبخه .. ويعلن الحرب عليه .. وعلى أفعـــاله .. وعلى علاقاته النسائية ..

فهذا لن يمر .. وحرب بحرب ..

والسُّلطة خمر .. إذا شربها إنسان .. أفقدته العقل والاتزان !.

المَلك ... العاشق ؟!...

أقــوى صفــة ...

من صفات الأنبياء ..

اعلانهم للحق .. واستعدادهم للموت .. في سبيل ذلك الحق ..

« لو وضعوا الشمس في يميني »

« والقمر في يساري »

« على أن أترك هذا الأمر »

« حتى يظهره الله »

« أو أهلك فيه ما تركته » .

وقد كان يحيى .. نموذجاً جليلا جميلا .. لتلك الصفة من الأنبياء ..

كان يمكن أن يمضي في رسالته .. يدعو إلى الله .. وإلى الخير .. دون التعرض لهيرودس ..

ولو قد فعل لحمد له هيرودس ذلك ..

ولكن يحيى نبيّ .. والأنبياء يتصدون للباطل مهما كانت أوضاع المبطلين ..

وتلك مهمتهم الأولى .. التي يرتفعون بها فوق هامات الجميع ..

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة » .

جاهدهم به جهادا كبيراً ..

وأخذ الكتاب بقوة .. يفرض التصدي لأهل الباطل بقوة ..

وهذا ما قد كان ..

كان « فيلبُس » .. رئيس إيطورية .. وأخو هيرودس .. زوجة جميلة .. لعوب طروب .. هيفاء لفّاء .. اسمها « هيروديًا » ..

وكانت المذكورة .. تشاطر العابثين عبثهم .. عندها استعداد أن تلعب دور المرأة الشيطان ..

وكان زوجها رجـــلا هادئاً رزينا .. يرعى قواعد المنصب واحترام السُلطة .. فلم تكن هيروديا تميل إلى هذا الصنف من الرجال !

والتقى العابث هيرودس .. والعابثة هيروديًا .. وتعاشقا .. في السّر تارة .. وفي العلانية تارة ..

وشاع وذاع الأمر في الناس ..

أن زوجة ملك إيطورية .. تحب ملك الجليل .. رغم أن هيروديا زوجة لشقيقة فيلبُس !!!

واشتدّ الغرام .. وكثر تردد هيرودس على قصر أخيه ..

وكثر الكلام .. وأضافت الجماهير من خيالها الأساطير ..

وأخيراً ضاق العاشقان بألسنة الناس .. وكثر اللغط في الموضوع ..

فدبّر العاشق العابث ألعوبة سياسية .. وشن هجوماً عسكرياً على أخيه باتفاق سري مع هيروديًا ..

وسرعان ما انتصر هيرودس في المعركة .. فقد كانت زوجة فيلبس مشتركة في التدبير ..

ووقع فيلبس في الأسر .. وزج به هيرودس في السجن ..

وأصبح هيرودس رئيساً للولايتين .. وقائداً منتصراً أمام شعبه ..

وخلا الجو للعاشقيْن .. وتبين للناس فيما بعد أن الأمر كله لم يكن إلا ألعوبة ليظفر هيرودس بهيروديا .. بعيداً عن زوجها السجين !.

وكم في السياسة من ألاعيب .. وكم فيها من أكاذيب !.

وأخيراً فكّر المذكور أن يُضفي الشرعية على علاقته بهيروديّا ..

فلماذا لا يتزوجها .. وقد أصبح زوجها أسيراً سجيناً ؟!

ولكن الزوج ما زال حيًّا يُرزق ..

وزواج الرجل بامرأة زوجها قائم .. أمر لا يقـــره عاقل .. وتحرمه الشرائع ..

ثم ماذا يفعل في يحيى .. هذا النبيّ الذي لا يسكت على باطل ؟!

وثرثر الشعب .. وما أكثر ما يثرثرون !

وتتطلع الجميع إلى عملاق الشريعة والحقيقة .. ماذا يكون موقفه من هذا المنكر القبيح ؟!

وانتهض نبي الله .. يحيى .. يؤدي ما افترضه الله عليه ..

فقام بزيارة هيرودس في قصره مرات .. في كل مرة يُوجّه الجماهير الـــتي كانت تتبعه في زياراته إلى الله .. ويدعو هيرودس إلى التوبة من آثامه والتطهر مما هو غارق فيه ..

وكان لكلام النبي وقعاً جميلاً في النفوس ..

وإعجاباً به من هيرودس .. إلا انه اعجاب ظاهر .. لا يصحبه رغبة في التحول عما هو فيه ..

« لأن هيرودس كان يهاب يوحنا .

« عالماً أنه رجل بار وقديس .

« وكان يحفظه وإذ سمعه فعل كثيراً وسمعه بسرور » !.

شأن المنافقين « وإذا لقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزءون » .

انه سرور سياسي .. ليركب موجة شهرة يحيى .. فيخدع الجماهير .. أنه مع يحيى .. فيكسب بذلك تأييدهم !.

وإذا عاد يحيى .. وانفضت الجماهير ..

عاد العاشقان يباشران مجونهما وزيادة !.

وفي مرة من المرات التي تردد فيها يحيى على القصر .. وبينما هو يوجه الجموع الى الله .. ويرشد هيرودس الى طريق التوبة ..

دخلت هيروديا على استخفاء وجلست بجوار هيرودس .. كأنها تستمع مع المستمعين الى يحيى ..

وكان تدبيراً منهما .. أن يراهما الناس على هذا الحال .. فيتأكد عندهم أن يحيى يرضى عن زواجهما .. وما هو يسكت عن ظهورهما معاً كزوجين !.

والأنبياء أعظم الناس ذكاء وأكبر فطنة ..

وما كان ليحيى أن يستغل مثل هـــذا العربيد مقامه في قصره .. هذا الاستغلال اللئيم ..

هنالك زأر يحيى زئير الأنبياء ..

وأعلن في أعلى صوت .. ليسمعه الحاضر والغائب ..

وشن هجوماً شديداً على هيرودس .. وعلى جرائمه .. وعلى آثامه .. وعلى سلوكه الذي يغضب الله غضباً شديداً ..

وواجه هيرودس بالحقيقة من أمره : يا هيرودس ليس لك حق في امرأة أخيك الحي .. ولا يحل أن تكون لك ..

ثم جعل يوبخه ويعنفه على استهتاره وارتكابه للجرائم والمنكرات ..

وهكذا الأنبياء .. « ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله » !.

وما هذا الهيرودس .. وما يكون ؟!

لا شيء .. في نظر النبي .. انه مجرد أفاك أثيم !.

عزائم الأنبياء .. شيء وراء العقول !.

« أما هيرودس رئيس الربع فاذ توبخ منه لسبب هادوديا امرأة أخيه .

« ولسبب جميع الشرور التي كان هيرودس يفعلها » .

وخرج يحيى من القصر .. رفيع الدرجات عند ربه ..

وترك من ورائه .. مَلِكاً يغلي بنيران الثأر والانتقام .

وامرأة قد أهينت على أعين الناس .. وتبددت أحلامها التي تراودها ..

وألحت العاشقة على عشيقها أن يقتل يحيى ..

وشاطرها العاشق رأيها .. إلا أنه أوجس في نفسه خيفة من قتله .. أن يؤدي ذلك إلى ثورة أتباعه .. والإطاحة بملكه المهزوز !.

وفكَّر المذكور ودَبَّر ..

ثم أصدر أمراً باعتقال يحيى .. فوراً ..

وجيء بيحيى .. وأدخل السجن .. في غياهب الظلام !.

« لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وامسك يوحنا .

« وأوثقه في السجن .

« من اجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه .

« إذ كان قد تزوج بها .

« لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لا يحل لك امرأة أخيك .

« فحنقت هيروديا عليه وأرادت ان تقتله ولم تقدر » !.

كل هذا .. من أجل أن يظفر العربيد بهيروديا ؟!.

معارك عسكرية .. مؤامرات سرية .. ألاعيب سياسية .. من أجل امرأة.

ولا يهم بعد ذلك .. أن تكون زوجة أخيه الحي ..

إنها الشهوة .. إذا استولت على عقل إنسان .. سوّلت له قتل أخيه .. فقتله !..

فهل قتله ؟!

نعم .. وتكررت قصة هابيل وقابيل مرة أخرى !.

سالومي ... تراود ... يحيى !؟...

« فطَوّعَت له نفسه .

« قتل أخيه .

« فقتله » ؟!.

فكر المجرم : إذا كان أخي هـــو العقبة .. في زواجي بهيروديا .. فليُقتل قتلاً !.

وأصدر الشقي هيرودس أمراً ..

وقتـَل أخاه فيلبس .. بتشجيع من الماكرة هيروديا !.

وتكررت مرة أخرى قصة الأخوين .. هابيل وقابيل .. ابنيْ آدم .. إذ قتل قابيل أخاه هابيل .. من أجل أن يظفر بامرأة !.

وها هو هيرودس يقتل أخاه فيلبس .. لنفس السبب .. ليظفر بامرأة أخيه !

كأن الدنيا خلت من النساء .. فلم يعد على ظهرها إلا هذه المرأة !.

ثم دخل هيرودس .. الى يحيى في سجنه الرهيب .. في أسفل القصر .. يعلن اليه أن أخاه فيلبس قد مات .. وبذلك أصبح زواجه من هيروديا امرأته أمراً طبيعياً ..

فقال له النبي يحيى : ليس بالشر يعالج الشر .. يا هيرودس لا تحل لك امرأة أخيك أبداً ..

وكان يحيى يعني بذلك .. أن من قتل زوج امرأة .. ليتزوج امرأته تلك .. فهذا الزواج محرم .. لأنه نشأ عن جريمة ..

وشبيه بذلك تلك القاعدة الإسلامية الذهبية .. أن القاتل لا يرث المقتول .

فازداد هيرودس خيبة على خيبة .. واستيأس أن يظفر من يحيى بشيء ..

لقد مكث يحيى عشرة شهور في هذا السجن .. مقيد الأرجل واليدين ..

وباشر معه هيرودس كل صنوف التهديد والإغراء ..

تارة يأمر بتعذيبه .. وتارة يلاينه ويلاطفه .. عسى أن يلين ولو قليلا ..

ولكن الأنبياء لا يتزحزحون عن الحق أبداً ..

فماذا يفعل الملك المجرم ؟!

وفكر ثم فكر .. وشاركته هيروديا .. في التدبير والتفكير ..

ان سلاح الجنس هو أقوى سلاح ..

يتضعضع أمام إغرائه أقوى الرجال ..

ووقع اختيارهما على ابنة هيروديا .. تلك الشابة الرائعة الحسن والجمال .. التي يسيل لها لعاب الرجال ..

وقع اختيارهما على تلك الشقية التي اسمها « سالومي » ..

ورسما لها الخطة .. ستذهبين في أجمل ثيابك .. وأحسلى زينتك .. إلى يحيى في سجنه .. وتحاولين بكل إغراء الأنثى فتنته .. داعبيه .. راوديه .. قبّليه .. افعلي ما يمكن لك كأنثى أن تفعلي .. هذا سلاحنا الأخير .. إن مستقبلي السياسي .. ومستقبل أمّك .. في مهب الرياح !.

وخرجت سالومي .. لتبدأ دورها الخبيث ..

فأخذت زينتها .. ولبست ثياب الفتنة .. وتعطرت بعطرها الساحر .. وتوجهت إلى أسفل القصر .. حيث يوجد السجن الرهيب ..

وطرقت الأبواب .. واستقبلها حراس السجن في ارتياب .. ثم فتحوا لها باب الزنزانة التي يسجن فيها نبي الله .. يحيى ..

ها هي الفتاة التي لا تُقهر .. وقد شهرت أقصى ما عندها من جمال ..

وها هو أشرف من تحمل الأرض .. وقد أوثقوا يديه ورجليه .. يتلألأ نور النبوة في وجهه الكريم ..

ونظرت سالومي اليه .. ولسان حالها يقول : « ما هذا بشراً .. ان هذا إلا مَلَك كريم » !.

وتلوت كما تتلوى الأفعى قبل أن تنفث سمومها .. وجعلت تتحدث اليه .. وكل جسمها يرقص اليه ..

عرضت عليه الإفراج عنه فوراً .. وعرضت عليه نفسهـــا .. وحبُها .. وغرامها .. واستعدادها لأن تفعل كل شيء إذا شاء ..

فماذا كان من النبي ؟!

كان ما يكون من كل نبي ..

إعراض .. عن الفاتنة وعن فتنتها ..

ثم دعوتها إلى التوبة .. وإلى الله ..

وها هنا تلألأ من يحيى .. عليه السلام .. حقيقة قوله تعالى « وحصوراً » أي عازفاً عزوفاً تاماً عن النساء ..

وتحطمت أنوثة سالومي تحطيماً تاماً .. وخرجت يائسة يأساً تاماً ..

لتعلن إلى هيرودس وأمها .. فشلها التام ... أن يلتفت يحيى إلى أنوثتها مجرد التفاتة ..

وأمثال سالومي وهيرودس وهيروديا .. لا يفقهون شيئاً عن معادن الأنبياء.

وأنّى للأرض أن تفهم السماء ؟!.

أو أنى للبهائم أن يفهموا الملائكة ؟!.

هذه السالومي .. التي يسجد أمامها هيرودس .. لعلها ترضى ..

هي في عيني .. يحيى .. مجرد جرثومة هائمة في الظلام !..

ذبح ... يحيى !؟

عنوان ...

هذا الفصل .. عنوان غليظ .. تشمئز منه القلوب .. وتفزع له النفوس ..

أيذبح الأنبياء ؟!

اي وربي .. ذبحوه .. وجاءوا برأسه .. لترقص بها راقصة ؟!.

هذا ما كان .. وهذا ما حدث .. فكيف كان ما كان ؟!.

في ليلة مشئومة .. ليلة عيد ميلاد الشقي هيرودس .. حيث يقـام حفل سنوي يتوافد فيه الرسميون والمنافقون لتهنئة الملك بعيد ميلاده .. وخاصة في ذلك العـام حيث ضم المذكور الى مُلكه مملكة أخيه فيلبس .. فيستعرض الشقي جيشه نهاراً .. ويتلقى التهاني والهدايا ..

وفي المساء يقام حفل راقص .. تقدم فيه جميع أنواع اللهو والخمر والنساء والرقصات والراقصات ..

وهكذا على الشعوب المسكينة دائماً ان تدفع من كدحها .. الى الملوك تكاليف عيشهم ولهوهم وإجرامهم !.

في تلك الليـلة الراقصة .. كان الملك هيرودس .. وصاحبته الموتورة هيروديا .. وابنتها الفاتنة سالومي .. على رأس الحاضرين .. في الحفل الصاخب الراقص ..

ومُدّت الموائد .. وأديرت الكؤوس .. فدارت بالرءوس ..

وشرب الملك .. وشرب المدعوون والمدعوات ..

وعزفت الموسيقى .. وانطلقت الراقصات .. وارتفعت الصيحات ..

والملك العربيد .. يلاعب هذه الراقصة وتلاعبه .. ويحتضنها وتحتضنه .. بين ضحك الضاحكين والضاحكات ..

إلا انه يريد امرأة بالذات .. لترقص له على النغمات ..

يريد سالومي .. ليشبع نهمه الجنوني نحوها ..

وطلب الملك الى سالومي .. ان ترقص .. فامتنعت وتمنعت ..

فازداد شوقاً اليها .. وتوسل اليها بكل ما يملك أن ترقص ..

فازدادت تمنعاً ودلالاً ..

فعرض عليها ان تطلب منه ما تشاء .. نظير ان ترقص له ما يشاء ..

هنالك سألت سالومي امها هيروديا .. ماذا أطلب يا أمّاه ؟!

قالت الأم .. في حقد شديد : رأس يوحنا .. يا سالومي .. في طبق من ذهب .. لترقص بها امام الملك !.

واغتم الملك المخمور لفداحة الثمن المطلوب ..

إلا انه اعطى وعداً ووعد الملوك لا يُرد !.

فأصدر الشقي أمراً .. ان يؤتى برأس يحيى فوراً ..

وانطلقت سالومي ترقص وترقص .. في هيستريا الوحوش حين تظفر بالفريسة !..

وضجت القاعة رقصاً .. مع رقص سالومي .. وتمايل الحاضرون سُكارى !.

وذهب السياف .. ومعه كوكبة من الجنـــد إلى السجن .. تنفيذاً لأمر الملك المريد ..

وبينما كان الحفل يتمايل سُكراً وضحكاً .. ورقصاً ..

كان السياف .. قد دخل الى زنزانة السجن ..

فوجد يحيى .. الأغلال في قدميه .. والحبال تقيد يديه ..

فهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه !.

وها هنا يسقط القلم من يدي .. ويتجمد تفكيري ..

ان أقبح جريمة تقع في تلك اللحظة ..

ها هو السيّاف .. يهوي بسيفه في سرعة فائقة .. على رقبة النبي يحيى .. فيفصل الرأس عن الجسد ؟!.

ان يحيى .. يُذبح ؟!.

ان نبياً .. يُذبح ؟!.

ألا لعنة الله .. على هيرودس القبيح .. ولعنة الله على سالومي .. ولعنة الله على هيروديا .. ولعنة الله على الحاضرين جميعاً .. ولعنة الله على ذلك السياف القبيح !.

نبي الله .. يُذبح !.

شيء تخر له الجبال هدّاً .. ان ذبحوا نبي الله .. ذبحاً !.

ثم ماذا ؟!. ثم يحمل السياف الرأس .. على طبق ..

وها هو يدخل سريعاً .. الى الجمع القبيح المخمور ..

ونظر المجرمون الى الرأس .. في بلاهة واستخفاف !.

وقدم السياف المشئوم .. الرأس إلى سالومي .. فقدمتها الشقية إلى أمّها ..

ها هنا وقعت معجزة أخرى ..

ان الرأس تهتف من الطبق : لا يحل لك أن تأخذ امرأة أخيك !.

هنالك أصاب هيرودس خوف وصمت رهيب !.

« وإذ كان يوم موافق لما صنع هيرودس في مولده ، عشاء لعظمائه وقواد الالوف ووجوه الجليل .

« دخلت ابنة هيروديا ورقصت .

« فسرت هيرودس والمتكئين معه .

« فقال الملك للصبية مهما اردت اطلبي مني فأعطيك .

« وأقسم لها ان مهما طلبت مني لأعطيتك حتى نصف مملكتي .

« فخرجت وقالت لأمها ماذا أطلب ؟

« فقالت : رأس يوحنا المعمدان .

« فدخلت للوقت بسرعة الى الملك وطلبت قائلة : أريد أن تعطيني حالا رأس يوحنا المعمدان على طبق .

« فحزن الملك جداً .

« ولأجل الاقسام والمتكئين لم يرد ان يردها .

« فللوقت ارسل الملك سيافاً وأمر ان يؤتى برأسه .

« فمضى وقطع رأسه في السجن .

« وأتى برأسه على طبق وأعطاه للصبية والصبية أعطته لأمها .

« ولما سمع تلاميذه جاءوا ورفعوا جثته ووضعوها في قبر » !..

وسلام عليه يوم ولد ... ويوم يموت ...

ويوم يبعث حيا ؟!...

ُرب سائل يسأل ...

أين هو السلام .. على يحيى .. يوم ولد .. ويوم يموت .. ويوم يُبعث حياً ؟

أين هذا السلام .. وقد بُحث عنه .. ليُقتل عند مولده .. لولا فرار أمه به إلى البرية ؟!

وأين هو السلام .. يوم يموت .. وقد مات مذبوحاً ؟!.

الجواب ... ان المراد بقوله تعالى :

« وسلام عليه يوم يولد .

« ويوم يموت .

« ويوم يبعث حيا » .

المراد .. سلامٌ عليه منّا .. يوم ولد ..

أي .. يولد نبياً .. عليه السلام منّا ..

وسلامٌ عليه منا .. يوم يموت ..

أي .. يموت نبياً .. عليه السلام منا ..

ويوم يُبعث حيّاً .. عليه السلام منا ..

لا يعصينا .. ولا نعذبه ..

« ولم يكن جبارا عصيا » .!

وهذا هو السلام الحق ..

أن تُسلم وجهك لله ..

وأن تنجو من عذاب الله ..

أما البلاء .. فهو درجات تبلغها عند الله !.

قالوا : (« وسلام عليه » أي سلام من الله عليه في هذه الأيام ، وإنما خص التسليم والسلام بهذه الأحوال لأنها أصعب الأوقات وأوحشها) .

يوم وُلد .. لأن المولد لحظة انتقال الإنسان من بطن أمه إلى الدنيا ..

ويوم يموت .. لحظة انتقال الإنسان من الدنيا إلى القبر ..

ويوم يُبعث حياً .. لحظة انتقال الإنسان من القبر إلى الحشر ..

والانتقال من وضع مألوف للإنسان .. إلى وضع جديد عليه .. يورثه وحشة وخوفاً ..

فإذا نزل عليه السلام .. بدّل خوفه سروراً .. ووحشته أمناً !.

« عن أنس بن مالك .

« عن مالك بن صعصعة .

« أن نبي الله صلى الله عليه وسلم .

« حدثهم عن ليلة أُسري به .

« ثم صعد حتى أتى السماء الثانية .

« فاستفتح قيل : مَن هذا ؟

« قال : جبريل .

« قيل : ومَن معك ؟

« قال : محمدٌ .

« قيل : وقد أرسل اليه ؟

« قال : نعم .

« فلما خلصت ، فاذا يحيى وعيسى ، وهما ابنا خالة .

« قال : هذا يحيى وعيسى ، فسلم عليهما .

« فسلمت ، فردا .

« ثم قالا : مرحبا بالأخ الصالح ، والنبي الصالح » .

[أخرجه البخاري]

﴿ تمـــت ﴾

فهرس

الموضوع	الصفحة
المسيح يصف يحيى	٨٥
قتل زكريا	٩١
يتيم في الصحراء	١٠٣
يا يحيى خذ	١١٣
شخصية يحيى	١٢١
من لدنك ... من لدنا	١٣٣
يحيى ... كما يراه ابن العربي	١٣٩
زكريا ... كما يراه ابن العربي	١٤٩
يحيى ... مصدّقاً بكلمة من الله	١٦٧
يحيى ... نبيـــاً	١٧٧
الملك ... العاشق	١٨٧
سالومي ... تراود ... يحيى	١٩٥
ذبح ... يحيى	٢٠١
وسلام عليه يوم وُلِد ... ويوم يموت ... ويوم يُبعث حياً	٢٠٩
فهرس	٢١٢

ماذا في هذا الكتاب ⁉

فيه تحليل.. جميل.. لشخصية.. يحيى.. عليه السلام..
لماذا قال الله فيه: « يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً »؟!
لماذا انفرد يحيى بقوله تعالى: « وحناناً من لدنا »؟!
فيه حياة النبي الذي قال فيه المسيح.. عليه السلام..
« انبيا؟.. نعم اقول لكم.. وافضل من نبي »!!!